عبد الصمد بلكبير

أربعة دروس عن (الحركة السلفية) *

أولا ــ الشروط التاريخية لـ « النهضة » في المغرب العربي.

1 ــ توطئة :

إذا كان الحديث عن « النهضة » على جميع مستوياتها، وبالنسبة لأي مجتمع، يعني ضمنيا وعمليا الحديث عن : نشأة ونمو البورجوازية، فان الظروف في بلدان المغرب العربية من هذه الوجهة كانت تشبه في الكثير من جوانبها ظروف نشأة ونمو واخفاقات.. البورجوازية في المشرق العربي. وكل الفروق هي ما ينتج عادة من الإختلاف في الزمن التاريخي بين كل سابق ولاحق.

هذا الحديث : 1)سيعتبر أن أهم الخلاصات عن « الحركة السلفية » في الشرق العربي، وعن شروط بروزها ونموها التاريخية... تشمله هو أيضا، ولذا سيقتصر على الفروق، ما تتميز به منطقة المغرب العربي ــ تاريخيا ــ عن المشرق العربي.

2) وكما يصح عموما أخذ مصر نموذجا لبقية بلدان المشرق العربي، نظراً لعدة اعتبارات.. فان نفس الأمر يصح على بلدان المغرب العربي، وبذلك سنأخذ (المغرب)، عموما، نموذجا رئيسيا لها جميعا.

2 ــ بين البادية والمدينة :

اعتمادا على الافتراض السابق، تاريخ كل نهضة هو تحليل تاريخ بورجوازية المجتمع الناهض. فما هو تاريخ بورجوازيتنا ؟ عموما تميز المغرب بهشاشة الوحدة بين عناصره المكونة واستمرار ضعف تماسكه الداخلي على مختلف المستويات الى مراحل متأخرة من تاريخه. وقد ساهمت في هذا الواقع (الانحلال الداخلي ــ التبعية للاجنبي) عدة عوامل، منها ما هو جغرافي (ضعف النمو الديمغرافي ــ استمرار تعرضه للهجرات..) ومنها ما هو سياسي ــ عسكري، تمثل خصوصا في غزوات أوروبا والشرق والتي اتخذت طابع احتلال أو استيطان... هذا الواقع التاريخي المتميز لم يسمح لـ (الأمة) المغربية ان توجد في القديم، ولا لدولة تسهر على تنظيمها وتوحيدها وصيانة كيانها المستقل.

كان الفتح العربي ــ الاسلامي ؛ بطابعيه العقدي والاستيطاني والذي عمل على الاندماج بالسكان الاصليين.. سيكون بحق نقطة البداية لتكوين الوحدة المنشودة. أوّلا ما سيعترضها من عوائق بنيوية ناتجة عن التقاء و(تصادم) بنيتين اقتصاديتين واجتماعيتين وثقافيتين...

ستحتاجان الى وقت قبل تحقيق الاندماج والانصهار المرغوب.. وسيتجسم أهم تناقض على هذا الصعيد في مسألة : تباين وتباعد المدينة من البادية في شكل تعارض وانقطاع من جهة؛ وعدم وجود اقطاع محلي (وطني) قوي وسائد. ذلك ان المدن المغربية، وحتى القرن 15، على الأقل، لم تكن وليدة تطور داخلي، بل إنها منبثة وواردة وتربطها فيما بينها، على بعدها عن بعضها، علاقات أقوى من تلك التي تربط كل واحدة منها بالبادية المحيطة بها.

هكذا نجد مقابل مدن متقدمة ومزدهرة في تجارتها وصناعتها وثقافتها... بادية منعزلة ومنكمشة وبئيسة حضاريا.. في ظل نظام اجتماعي قبلي يكتفي بذاته ولا تربطه الا أوهَى الروابط الاقتصادية ــ الاجتماعية بالمدينة، والسياسية بالدولة المركزية، والحضارية بمجموع الوطن.. لقد كان لدينا إذن نمطان من الاقتصاد ومن الاجتماع، وبالتالي نمطان من الحضارة. وأسوار المدن تكاد تكون التعبير المادي عن ذلك الانفصال بل التعارض بين الوضعين داخل البلد الواحد. ولم تكن الوحدة تحصل الا عندما يكون هناك هدف جهادي لانقاذ « المسلمين » باعتبارهم كذلك (الاندلس مثلا) أو للدفاع عن الكيان الوطني. إلا أننا سنلاحظ مع بداية القرن 14 وحتى 15 نوعا من التغيير الكيفي يبدأ فيه ارتباط نسبي بين المدن والبوادي المغربية على الأصعدة : الاقتصادية ــ الاجتماعية والسياسية ــ الثقافية. وعندئذ ستبدأ في البروز اكثر فأكثر بورجوازية مدينية لديها متسع من المجال لترويج سلعها وبالتالي لاستقواء واستقلال كيانها.

غير أن هذا الحدث ــ التطور سيقترن باحداث سياسية عظيمة الأهمية ستعدل من اتجاهه ان لم تكن قد عرقلته نهائيا. تلك هي :

* بداية نهضة بورجوازية شبه جزيرة ايبريا، وما نتج عن ذلك من طرد الأخيرة لفائض السكان المنافسين، خصوصا المسلمين واليهود، واضطرار الآخرين الى الالتجاء نحو بلدان المغرب.

* بداية الغزو الاسباني والبرتغالي للموانىء المغربية. وهكذا فابتداءا من عام 1415 حيث احتلت مدينة سبتة، وطيلة 150 عاما، سيستمر الصراع عنيفا بين ارادتين طامحتين لنفس الهدف، وسيكون الرهان بينهما رهانا مصيريا، ولقد استطاعت ايبريا بالفعل، وفي نهاية المطاف أن تحد من طموحات البورجوازية : التجار والحرفيين... المغاربة سواء عن طريق تركيم فائض بشري ومنافس لها من المهاجرين الأندلسيين، أو باحتلالها لكل الموانىء التجارية الأساسية، أو بهجوماتها الحربية على الداخل نفسه، أو بضرباتها للأساطيل المغربية في عرض البحر، أو بتغييرها لطرق التجارة العالمية من الأبيض المتوسط الى المحيط الأطلسي..الخ... الخ...[1].

3 ــ (وادي المخازن) والانعطاف....

جدل التاريخ سيتدخل، وهذه المرة لصالح المغرب، ذلك أن المغرب الذي خسر اقتصاديا واجتماعيا... سيربح على الصعيد السياسي بداية تكون حقيقي لمفهوم وحدة الأمة (الوطن) في اطار وفي سبيل الصراع ضد الأجنبي الغازي.. فاذا كانت حركة التجار لربط البادية بالمدينة

قد توقفت، فان حركة البادية على النقيض من ذلك، وفي اطار تفتحها على المدينة من أجل التحالف على الجهاد كانت قد بدأت.

وهكذا، والى حدود أواخر القرن 16، وبالضبط من الواقعة العسكرية.. التاريخية العظيمة : معركة وادي المخازن (1578) سيتمكن الشعب المغربي من جني أولى الثمرات السياسية لمجهوداته السابقة... وسيقيم إرتكازاً على ذلك أول دولة مغربية لا ترتكز الى العصبية القبلية وانما الى وازع ديني كان بالنسبة الى المغاربة رمزا لوحدتهم الثقافية والسياسية. هكذا اذن تكونت وترسخت الدولة السعدية الشريفة، وستحقق في أيام المنصور (1603) خصوصا خطوات واسعة على طريق النهضة المأمولة : ستنفتح على الاتراك في الشرق وتستعير منهم مختلف نظمهم الادارية والعسكرية والحضارية وتدخل معهم في انواع من التعاضد والتحالف (حتى لكأنهم عثمانيون)، وستستفيد الى أقصى درجة من منجزات الحضارة في الأندلس على يد المهاجرين، وستعيد هيكلة الدولة لتصبح أكثر مركزة وأوسع انتشارا في نفس الوقت. كما أنها ستعيد النشاط للطرق التجارية القديمة وبالأخص البرية منها في اتجاه الصحراء وافريقيا، كما ستهتم بأنواع الصناعات (صناعة السكر بتادلة وشيشاوة كمثال)... الخ... الخ.

ومع ذلك فان بعض التعارض ــ التناقض القديم (مدينة ــ بادية) بقي مستمرا. ولم تستطع هذه الدفعة السياسية الوطنية ان تنوب الى المدى البعيد عن الحاجة الى روابط اقتصادية ــ اجتماعية وثقافية، خصوصا وأن كلتا الدولتين : السعدية في المغرب والعثمانية في بقية الشمال الافريقي لم تهتما كثيراً بهذا الأمر، كما لم تهتما بالجانب التعليمي لتكوين نخبة ثقافية.

وهكذا، وبموت المنصور بدأ الانحلال بالصراع على الملك بين الأبناء الثلاثة، وظهور أصابع الخيانة الوطنية (الشيخ المامون)، فانتصرت الزوايا والطرق الدينية من كل الأصناف، وكثرت مطامع الافراد والجماعات في تكوين الامارات والدول. وبهذا كله وغيره.. انحل ما كان معقودا في مرحلة النهضة الأولى ليعيد المغرب الكرة من جديد على يد شرفاء آخرين سيجتهدون في اعادة الوحدة الى البلاد : اسماعيل (ــ 1729) خصوصا. واعادة الحرية اليها : محمد بن عبد الله (ــ 1790) ثم سليمان (ــ 1822)، الا أن طموحات محمد الثالث في النهضة لن تجد ما يسندها في الداخل خصوصا وهو نفسه لم يؤسس قوته الذاتية الا ارتكازا الى عوامل خارجية (التجارة والوساطة التجارية مع أوربا من ميناء الصويرة) من جهة، وأن العناصر الاجتماعية التي اعتمد عليها كانت حتى ذلك الوقت ذات طابع ارتزاقي (عبيد بخاري). وقد ظهر فشل مشروعه واضحا بالضبط عند فشله في تحرير مليلية، وتوقيف حصاره لها عنوان على الهزيمة الثانية لبورجوازيتنا، لم تتحامل بنفسها عنها الا مع وقع خطوات الجيوش الاستعمارية وهي تدخل المغرب العربي مع بداية القرن 19، ذلك أن سليمان من جهته سيتخلى نهائيا عن اسطوله امام الضغط الأوربي. والمولى عبد الرحمن سينهزم أمام فرنسا شر هزيمة في معركة إيسلي (1844). اما محمد الرابع فستكون هزيمته أكثر نكراً حين سيبدأ حكمه (1859) بهزيمة ماحقة عندما احتل الاسبان مدينة تطوان (1860) وما نتج عن ذلك من اتفاق استعماري مجحف رهن خزينة الدولة ومداخيلها من موانئها ولمدة 20 سنة للدولة الاسبانية، وبذلك فتح الباب واسعا أمام الامتيازات الأجنبية التي تكرست في اتفاقية مدريد (1880).

لقد كان القرن التاسع عشر بالنسبة للشمال الافريقي ككل نهاية للمشروع البورجوازي ولطموحاته.. أمام انتصار البورجوازية الأوروبية واستعمارها له بشكل مباشر (الجزائر، تونس...) أو بشكل غير مباشر (المغرب) ومن ثم سيرتبط التاريخ الحديث للمغرب وتاريخ « نهضته » بالصراع مع الاستعمار الاوربي، وقد تمظهرت هذه :

4 ــ المحاولة الثالثة : للنهضة، في عدة مظاهر :

أ ــ المظهر السياسي : وتجلى، خصوصا في المغرب، على يد بعض ملوك الدولة العلوية الذين حاولوا تقوية ومركزة الدولة والجيش، وتوسيع وتنويع العلاقات الديبلوماسية وحتى التحالفية مع الشرق خاصة، مع نوع من الاهتمام بالتعليم: باصلاحه، وارسال البعثات العلمية نحو أوربا، واصلاح بعض مظاهر الاقتصاد المغربي... الخ وقد كان المجهود نفسه تقريبا يجرى في بقية البلاد المغربية كما تجلى خصوصا في تجربة محمد خير الدين بتونس ومشروع دستوره الذي اتفق عليه (1857) قبل أن ينتهي الى الفشل (1877)، وفي ليبيا مجهودٌ آخر على يد السنوسي الذي بذل الكثير من أجل ترسيخ كيان مستقل وموحد للقطر الليبي. الا أن كل هذه المجهودات باءت بالفشل أخيرا نتيجة عدة عوامل يمكن انتقاء أهمها :

. ضعف القوة الاجتماعية القائدة من الداخل

. تفكك البنيات، وبالأخص منها استمرار تناقض المدينة مع البادية.

. بداية تكون بورجوازية محلية مرتبطة مصلحيا مع الأجنبي ومناوئة عمليا للسلطة الوطنية.

. ولا يجوز أن ننسى عامل الضغط الاجنبي الخارجي على مختلف المستويات الاقتصادية.. وحتى العسكرية.

ب ــ المظهر العسكري : وقد تجلى خصوصا في الجزائر لدى القائد العظيم : الأمير عبد القادر محي الدين الذي أظهر كفاءة عالية في مقاومة الاستعمار الفرنسي، وتحقيق وحدة للأمة المغربية على صعيد جديد وبمحتوى وطني آخر. تمثل خصوصا في ربطه لنضال الشعبين المغربي والجزائري. ومن ناحية أخرى في ارادة الدولة المغربية مساعدة القطر الجزائري في نضاله للتحرر من فرنسا، ونفس الشيء كان بالنسبة للقطر الليبي.

غير أن المجهودات العسكرية انتهت جميعا الى الفشل الذريع بسبب من تشتتها منطلقا وخططا بعدم التنسيق بينها (ثورة محمد المقراني ــ ثورة أبي مرزاق ــ ثورة الشيخ الحدّاد ــ حركة الجيلالي الزوكى (أبوحمارة)...الخ) من جهة، ومن جهة أخرى بسبب التقدم التقني في الميدان العسكري للجيش الغازي الشيء الذي فاجأ في هذه المرحلة المواطنين المناضلين المغاربة.

ت ــ المظهر الثقافي : ويصح أن نعتبر الحركة السنوسية من جهة، والمولى سليمان من جهة أخرى، من أوائل المبادرين في هذا السبيل، فقد استفاد سليمان، مقتديا في ذلك مثل السنوسي، بمبادىء وتوجيهات ومواقف الحركة الوهابية في الشرق، فعمل من جهته، وبحسب فهمه لها واحتياجاته منها، على تصحيح العقيدة الدينية عند الشعب بالرجوع الى الأصول

السلفية ومحاربة البدع : من مؤسسات الطرقية، والخرافة والشعوذات.. إلخ كما بذل مجهودات في إصلاح مؤسسات التعلم وأنظمته.

وفي نفس المسار تقريبا سارت مجهودات مفكرين آخرين من أمثال : أبو اسحاق ابراهيم التادلي (ــ 1894) ومحمد كنون (ــ 1884) واحمد بن خالد الناصري (ــ 1897) وعبد السلام العلمي، والمفضل أفيلال ومحمد السليماني والطاهر الافراني وماء العينين الشنقيطي.. الخ حيث عملوا جميعا على ربط الوضع الفكري والثقافي في المغرب بالحركة الاصلاحية ــ السلفية في الشرق، ناشرين من جهتهم، عن طريق الدرس النظامي، أو نقاشات المنتديات الخاصة، أو التأليف، مفاهيم ومبادىء الفكر والبرنامج السلفي. وبذلك انخرطوا في أنواع من الصراع ضد المؤسسات التقليدية بما فيها السياسية احيانا كما نلاحظه عند ابراهيم التادلي في وقوفه العنيد ضد اقرار ضريبة « المكس »، أو في بعض تآليفه (التي بلغت مئة وعشرين 120 تأليفا منها تلخيصه لكتاب محمد خير الدين « اقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك »). وقد كان له اتصال مباشر بالشيخ محمد عبده (في لبنان 1886) كما جال في أوروبا (اسبانيا خصوصاً) واتصل في تركيا بعبد الحميد حيث كتب له كتابا توجيهيا.

وفي نفس السياق تقريبا يمكن ادراج محمد الكتاني وكتابه الهام « دعوة الاسلام » الذي لعب دوراً كبيرا في الحركة السياسية المغربية في أوائل هذه القرن خصوصا حركة محمد بن عبد الكريم الخطابي. وعلى نفس النهج يصح إدراج عمل المؤرخ الكبير أحمد بن خالد الناصري « الاستقصا...» الذي تضمن نظرات نقدية، وبرامج إصلاحية متقدمة جدا في ظروفها، وقد كان على اطلاع في الثقافة الغربية، ببعض لغاتها.. الشيء الذي أهله أكثر لكتابة تاريخ شامل للمغرب عصري في طريقته. مستفيداً من العلم في منهجه... وفي هذا العهد كذلك سيمثل الوزير ابن ادريس العمراوي (ــ 1848) في اتجاهه الاصلاحي ما مثله محمد خير الدين في تونس. وقد كانا متعاصرين، ودخلت المطبعة لأول مرة المغرب سنة 1859، وطبع فيها أول كتاب سنة 1866.

5 ــ على طريق الاحتلال... حتى 1930.

المظهر العام :

. استعمار مباشر أو غير مباشر يشمل كل بلاد المغرب العربي.

. انخطاط شامل لمجمل جوانب الحياة الاقتصادية الاجتماعية والثقافية.

. تكريس الانقسام داخل الأمة بالأخص على مستوى مدنها وبواديها في صيغة : مغرب نافع وآخر غير نافع.

. تكون بورجوازية كمبرادورية عملية للأجنبي على حساب مصالح البلاد، مستفيدة مقابل ذلك من بعض الامتيازات ومن الحماية الخارجية.

. بداية تفاوت الوضعيات بين أقطار المغرب العربي، وتوحدها في المجالات التي ساد فيها نمط الانتاج والثقافة الاستعماريين.

. عزلة عن الخارج عموما، مع استثناء انفتاح ضيق على فرنسا.

. والخلاصة الأكثر جوهرية، أن الكفة في الصراع بين المنطقتين العربية والأوربية، كانت قد رجحت نهائيا لصالح المشروع الاستعماري للبورجوازية الأوربية، وسقط، الى الأبد، رهان المغرب، بقيادة بورجوازية ستحاول بدعم الدولة وتدخلها تلافي قصور الماضي والحاضر، (من محمد الثالث الى الحسن الأول)، هذا في الوقت الذي لم يفشل فيه الرهان الياباني لاسباب تتصل غالبا بالجغرافية ـــ السياسية.

في مقابل هذه الصورة المظلمة، والنتيجة العامة، كانت هنالك مجهودات اعتبرت استمرارا لسابقاتها أو وليدة الظروف الجديدة، ويمكن ملاحظة ذلك في :

أ ـــ استمرار محاولة الدولة المركزية لانقاذ الوضعية على المستوى الداخلي باعادة بناء جهاز السلطة، وإصلاح الادارة وتوحيد البلاد واصلاح التعليم وارسال البعوث العلمية الى الخارج وتحقيق ظروف أحسن على المستوى الاقتصادي، وقد بلغ هذا المجهود الذي بذله خصوصا الحسن الأول (ـــ 1894) وبجانبه الوزير (ابّا احماد) درجة تأسيس مجلس للأعيان يمثل شبه نواة أولية للنظام النيابي (البرلمان)، كما انه على الصعيد الخارجي اهتم بتقوية العلاقات مع الأصدقاء والحلفاء ومع خصوم الخصوم.... لاستغلال التناقضات فيما بينهم الشيء الذي قام بدور حاسم في تأخير دخول الاستعمار رسميا الى المغرب مقارنة مع بقية البلاد المغربية الأخرى.

ب ـــ ومن مظاهر تلك المجهودات لـ « النهضة » المعطّلة، ما يسمى ب « الثورة الحفيظية » وهي حركة سياسية شعبية قادها مثقفون من علماء القرويين غالبا أو من رجال الصوفية الطرقية أو من ليبراليين كان لهم اتصال، بشكل أو بآخر، بأوروبا، وقد كانت الحركة في عمقها حركة دستورية اصلاحية لنظم الحكم وعلاقات السلطة والتنظيم الاداري لجهاز الدولة... وقد عبر ميثاق البيعة لعبد الحفيظ، والذي كتبه بنفسه قائد الحركة أحمد بن المواز، عن مضمونه الليبرالي ـــ الاصلاحي المتقدم في ظروفه، والذي كان تتويجا لحركات دستورية سابقة عليه. وبالأحص منها مشروع دستور جريدة لسان المغرب (1907) وغيرها من الدساتير المقترحة في ذلك التاريخ. وقد استطاعت هذه الانتفاضة أن تنتصر فعلا وأن تعوض عبد العزيز بأخيه (سنة 1908) الذي التزم لفظيا بميثاق البيعة، ولكنه لم يستطع أن ينفذ شيئا منه بسبب الضعف الذاتي أمام الضغط الأوربي بعدم الاعتراف به إن هو تخلى عن اتفاقات أخيه معهم. هكذا سيضطر عبد الحفيظ، بالنظر لعجزه عن مواجهة الداخل (برجوازية مغربية ذات امتيازات ولا تؤدي ضرائب لكونها محمية من الأجنبي..) وعن مواجهة الخارج.. بالاعتماد على الشعب... الى الرضوخ من جهته لمطالب الاستعمار التي لا تنتهي. الشيء الذي دفع بالشعب المغربي ومرة أخرى، وخصوصا قبائله البدوية الى اعلان الانتفاضة المسلحة سنة 1911 في مختلف المناطق توقيا لتردي الأوضاع وردا على بداية الدخول الاستعماري (وجدة ـــ سطات)، غير أن هذه الانتفاضة التلقائية بالذات هي التي ستتخذ من طرف الاستعمار ذريعة للهجوم الرسمي على البلاد بدعوى حماية سلطانها، وتثبيت أسس النظام فيها.

ت ـــ ومن أهم مظاهر « النهوض » في هذه المرحلة كذلك، الحركات السياسية المسلحة التي اتخذها نضال الشعب المغربي كشكل بارز لمواجهة المعتدى الأجنبي. وقد ابتدأت أولا من الصحراء بقيادة الشيخ ماء العينين وابنه الهيبة الذي وصل في حركته مدينة مراكش ثم انتفاضة مدينة فاس وامتناعها عن دخول الأجنبي اليها، وذلك كان بقيادة جنود السلطان أنفسهم... وبعد ذلك ستتوالى انتفاضات الجبال في الأطلس المتوسط أولا بقيادة موحى وحمو وابو القاسم النقادي ثم في الشمال بقيادة محمد أمزيان والريسوني أولا ثم محمد بن عبد الكريم الخطابي في المرحلة الثانية، وقد كانت حركته أوج ما وصل إليه التنظيم والوعي الشعبي من نمو وتقدم. وعلى اثر فشله وفشل خليفته أهريرو (1926) ستندلع ثورة أخرى بالأطلس الصغير (صفرو) الى حدود الصحراء. لم تنته الا في حدود 1934 ـ 1936.

إن أهم ما ميز هذه الحركات هو قوة مواجهتها العنيفة للاستعمار واظهارها لأعظم خصائص العبقرية المغربية في ميدان التنظيم العسكري وما يرتبط به... الا أن عيوبها القاتلة كانت من عزلتها عن بعضها أولا، وعزلتها جميعها عن المدينة ثانيا، وأن أفقها العام السياسي وبرامجها الاقتصادية ـــ الاجتماعية... كانت تتسم بالضيق والقصور حتى بالنسبة للآفاق والمشاريع... الاستعمارية نفسها، فانتهت دون أن تترك في الداخل تأثيراً حاسما ومستمراً يوازي تأثيرها من الخارج.

ث ـــ أما المظهر الثقافي لحركات « النهوض » في هذا العهد، فقد كان في الكثير من جوانبه استمراراً للمرحلة السابقة عليه مباشرة، لولا عنصر جديد هو نشأة الصحافة، وبالأخص منها المطبوعة، في فاس أولا (الطاعون 1906) و(الصباح) لابن حيون بنفس التاريخ. ثم في طنجة (لسان المغرب 1907) للأخوين اللبنانيين نمور .... والملاحظ أن هذه البداية للصحافة في المغرب، كانت مرتبطة بالأجنبي سواء مباشرة أو عن طريق مغاربة اسميا وشكليا يُستعملون وسائط للتعبير عن مصالح ومطامح أجنبية فعليا. ومع ذلك فقد صحت جريدة (لسان المغرب) بمرور الكثير من افكار وقضايا المغاربة كما هو الحال بالنسبة لـ (بريد سبتة) أو بالنسبة للصحف العربية التي كانت تصدر خارج المغرب، حيث كان ينشر بعض الكتاب المغاربة ويعملون على توزيعها فرديا وجماعيا بين المهتمين.

وقد مثل الحركة الثقافية ذات المظهر الديني السلفي عدة علماء دين، كان على رأسهم جميعا أستاذهم ومربيهم الشيخ أبوشعيب الذي زار الشرق كثيرا، واقتنع (أو تزامن اقتناعه) بالمبادىء والآراء السلفية التي اقتنع بها شيخ المشرق يومئذ محمد عبده، والذي بذل الكثير، وعلى نفس نهج الامام، لنشر مبادىء واصلاحات الحركة السلفية على مستوى العقيدة والتشريع واصلاح التعليم والدعوة للأخذ بالعلوم العقلية والعصرية... الخ. سواء عن طريق التدريس أو الجلسات الخاصة مع التلاميذ « المريدين » أو داخل الادارة نفسها حيث كان وزيراً للعدل..

وقد سار على نفس نهجه تلميذه النابه والذي ربط لأول مرة الحركة السلفية بالحركة الوطنية (شيخ الاسلام محمد بلعربي (ـــ 1964) الذي تخرج على يديه كل القادة الرواد للحركة

الوطنية فيما بعد وعلى رأسهم كل من محمد غازي، علال الفاسي ومحمد المختار... وقد كان يساير الحركة أساتذة آخرون من أهمهم : المكي البطاوري ومحمد الرافعي، محمد السايح، محمد الحجوي والمدني بلحسني.. وغيرهم كثير.. ويصح لنا أن نلاحظ ان هذه الدفعة الثقافية كانت من الازدهار والزخم ما أزرى بالحركة الوطنية نفسها في ممارستها الثقافية اللاحقة، حيث كان الجانب الثقافي من اهتمامها ضعيفا بالقياس الى انجازات أولئك السلفيين.

ولم يكن تأثير الشرق العربي كعامل في « النهضة » يقصر عن العوامل الداخلية، لقد كانت جرائده، وخصوصا منها « العروة الوثقى » أولا ثم « المنار ».. متداولة بصورة واسعة في أوساط المتعلمين في المغرب، كما أن كتابات الرواد (الافغاني ــ عبده...الخ) ومؤلفاتهم كانت تحظى بنفس الدرجة من القبول والرواج. ونفس الأمر كان يحصل بالنسبة للانتاج الأدبي المشرقي كاشعار البارودي وشوقي ومقالات المنفلوطي وأدبيات السياسة عند مصطفى كامل وسعد زغلول... وكذا الانتاجات الفنية في المسرح والغناء...الخ. ولم تكن قنوات التأثر مقتصرة على الاستيراد (للقيم الثقافية) فحسب، بل ان المغاربة اتصلوا بشكل مباشر بالشرق خلال رحلاتهم المستمرة للدراسة أو للسياحة أو للحج.

هذه إذن كانت مجمل الأوضاع والعوامل، بشقيها الايجابي والسلبي، في المغرب خصوصا، اما بالنسبة للجزائر وتونس فقد تميزتا باتخاذ الحركة فيهما طابعا سياسيا منذ البداية بقيادة الأمير خالد ثم مصالي الحاج في الجزائر والثعالبي وعلي باش حانية في تو نس، ولم يأت العمل الثقافي سوى لاحقا، على الخلاف من الحالة في المغرب حيث لم يأت العمل السياسي (المنظم والمدني) الا بعد تمهيد من الحركة الثقافية ذات الطابع السلفي الديني.

هذه إذا هي العناصر والمقدمات التي كانت ضرورية لتنشأ عنها ا لركة الوطنية ابتداءا من أواسط العشرينيات، وبالأخص منذ المنعطف التاريخي الذي شكلته احداث 1930 المقرونة بحدث « الظهير البربري » حيث ستخرج الحركة السلفية من طابعها النخبوي الارستقراطي والمنعزل عن الجماهير.. وبالأخص البادية. والمكتفي بالاصلاحات الثقافية والاجتماعية... الى الارتباط بالجماهير (في المدن خاصة) وخلق تنظيمات مدنية ومستمرة والانفتاح على أفق العمل السياسي الرحب ببرامجه الوطنية ووسائله العصرية.

6 ــ مقارنة بالشرق :

من الأكيد أننا حين نكون بصدد المقارنة بين جزئي الوطن العربي (المشرق والمغرب) على أي مستوى أو صعيد سنجد ان المشتركات من الظواهر ــ هي أوفر نسبة من الفروقات.

وفي هذا المجال بالذات فان ما هو مشترك كثير كذلك، فبالاضافة الى وحدة المناخ الثقافي العام الذي يشكل نسبة كبيرة منه : الاسلام واللغة العربية. نلاحظ وجود مجموعات لغوية داخل بعض شعوب المنطقتين. كما أنه من الناحية السياسية كان الخضوع لنظام واحد تقريبا، بتفاوت في درجة ذلك الخضوع للخلافة العثمانية. أما الوضع الاقتصادي الاجتماعي فقد كان في عمومه اقطاعياً ــ قليلاً، كما أن الدول المحلية كانت تنزع غالبا الى الانفصال والاستقلال عن المركز. وتبنت حركات النهوض الفكرية في بعض لحظاتها غير أنها جميعا انتهت

الى الاخفاق. وبالنسبة للمراحل والطرق التي توسل بها الاستعمار لاقتحام البلاد والسيطرة عليها فقد كانت هي نفسها دائماً : سياسة الامتيازات الخاصة، ثم توزيع الحمايات الشخصية.. حتى تصير البلاد شبه مستعمرة قبل أن تستعمر نهائيا.. الخ...الخ.

أما الفروقات فهي كثيرة كذلك، وهي غالبا ناتجة عن عوامل التاريخ (والجغرافية كذلك) والمتمثلة خصوصا في التطور غير المتكافىء للأنظمة الرأسمالية سواء كانت تابعة وفي طور النشوء.. أو كانت مسيطرة.

وجميع عناصر الفرق بيننا مع المشرق في هذه المرحلة لا تمس في شيء حقيقة الاشتراك في وحدة التاريخ القريب لـ « النهضة » وأهم ذلك بصورة مختصرة ومركزة :

. تأخر ظهور البورجوازية (المقصود المتخلقة في المرحلة الاستعمارية) في المغرب العربي بالمقارنة الى الحال في الشرق.

. سرعة دخول الاستعمار بكل خصائصه نحو المغرب وقبل المشرق، باعتباره احتلالا شاملا.

. ارتباط الحركة الفكرية الاحيائية (السلفية) بالحركة الوطنية المقاومة للاستعمار (اقتصاديا ــ سياسيا...) في المغرب. الشيء الذي لم يحصل بنفس الصورة في المشرق .

. خصوصية البرنامج الثقافي المغربي ذي الطابع القومي بالنظر لخصوصية الاستعمار الفرنسي الاستيطاني والذي يركز على استلاب الشعوب المستعمرة وتغريبها ثقافيا، فتأثر رد الفعل الثقافي الوطني بطبيعة وخصوصية الفعل الثقافي الاستعماري.

. تجاوز حركة الفعل السياسي ــ العسكري للجماهير ضد المستعمر، حركة الفكر السلفي ــ الوطني لنخبة المدن المغربية، وقد كانت هذه الخاصية من أعظم ما ميز تاريخ نهضة المغرب العربي الحديثة ليس عن المشرق العربي فحسب، بل على الصعيد العالمي، حيث لم يوجد خلال مرحلة القرن 19 وأوائل 20 شعب في العالم قاد الكفاح المسلح بالنفس الطويل والاجتهاد والابتكار في كل ما يتصل بالمقاومة بالمستوى والدرجة التي أنجز بها في البلاد المغربية.

. إن الحركة الطرقية في المغرب لم تكن بمجملها بمثل ما كان عليه الحال في المشرق، بل إن طوائف دينية وزوايا كثيرة في المغرب كانت في عمقها سلفية واصلاحية بل وحتى وطنية. وكان تاريخها الحافل بالارتباط مع حاجيات شعوبها السياسية هو ما أهلها في العصر الحديث للاستمرار على نفس الارتباط، واحسن نموذج : الطريقة الرحمانية في الجزائر، ماء العينين في المغرب.

. ضعف تأثير الثقافة واللغة التركية في المغرب بالمقارنة الى الوضع الذي كان في المشرق، مما مكن اللغة العربية المشتركة، في تونس والمغرب خاصة من الاستمرار على تماسكها واستقلالها وسلامتها. وآثار ذلك ما زالت ماثلة اليوم، ولكن لوظيفة سلبية حاليا.

. عدم قدرة الاستعمار على استغلال الفروقات الثقافية ــ الحضارية واللغوية بين المغاربة (عرب / امازيغ) الشيء الذي أفلح فيه في المشرق وعطل نسبيا حركته : (مسلمين / مسيحيين ...الخ).

. ارتكاز حركة النهضة في المغرب في كثير من مقوماتها، على حركة النهضة في المشرق، أي ان المغرب العربي لم يكن في آخر التحليل سوى امتداد للمشرق في هذا المجال، استفاد من منجزاته وبنى في الأغلب على نفس أسسه.

ثانياً : محمد علال (الفاسي)

تميز الفكر السلفي بالمغرب، في مطلع القرن العشرين ببعض المميزات عن سلفية اقطابه ورواده في أواخر القرن التاسع عشر. أو الذين استمروا الى بداية القرن العشرين على نفس نمط واتجاه نشأتهم الفكرية. وهذه المميزات هي ما أهّل هذا الفكر لأن ينعت من طرف علال وغيره بـ « السلفية الجديدة ». اهم تلك المميزات :

1 ــ انفصاله عموما عن جهاز الدولة المركزي، وبداية ارتباطه بحركة مثقفين يمثلون ايديولوجيا، الطبقات القائدة في مجتمعات المدن الكبيرة حينئذ، والمقابل فالدولة لم تعد بالنسبة لهذه المرحلة من تاريخ هذا الفكر ممثلة للإسلام الصحيح والشرعي، بل على النقيض أحيانا.

2 ــ أنه انطبع بطابع سياسي بمضمون وطني، نتيجة دخول الاستعمار كعامل أساسي في التناقض، وبذلك فقد ربط هذا الفكر بين فساد العقيدة الدينية والسلوك... بفساد الوضع السياسي، ومن ثم فسيصبح الاصلاح الديني بالنسبة اليه مرتبطاً بالاصلاح السياسي إن لم يكن مضمونه العملي.

3 ــ أنه في الممارسة العملية واليومية، لم يفصل بينه وبين الفكر الليبرالي ــ الغربي فاصل حاد، بل على النقيض من ذلك، فعلى الصعيد السياسي كبرامج وكممارسة.. تداخل الفكر السلفي بالفكر الليبرالي، الذي تبناه بعض المثقفين المغاربة، تداخل هُدنة وتساكن وتوزيع مهام. وبقي كذلك طيلة مرحلة الاستعمار القديم.

وعلينا أن نسجل مع ذلك أن هذا الانتقال من السلفية بطابعها القديم الى خصائصها الجديدة لم يأت طفرة أو بشكل مفاجيء، بل انه مرَّ في مرحلة انتقالية استمرت زمنا، وكان أعظم ممثل لها هو شيخ الاسلام محمد العربي الذي كان الأستاذ المباشر لكل قادة ورواد الفكر السلفي الجديد وفي المقدمة منهم محمد غازي، محمد المختار ومحمد علال. (ــ1975).

ــ اشكالات الدرس :

تعترضنا في مناقشة فكر وشخصية علال اشكالاتٌ لا نجد مثيلا لها عند غيره ممن ينتمي الى خطه، ومن ذلك :

1 ــ مشكلة التوفيق بين اعتبار نشاطه وانتاجاته النظرية أو ممارساته. وبالأخص منها السياسية. خصوصا وأن هذين الجانبين لم يكونا دائما متطابقين لديه، لدرجة نحس فيها أحيانا وكأننا أمام شخصين أحدهما ينظّر وآخر يمارس انطلاقا من نفس الأسس النظرية وأحيانا مما يُناقضها، فأيهما سنراعي عند التحليل : هل كتاباته ومحاضَراته... النظرية ؟ وهي بحدّ ذاتها زخمة ووفيرة. أم ممارساته السياسية العملية ومواقفه الملموسة ؟ وهي لا تقصر عنها في الصفة إياها.

2 ــ أما الاشكال الثاني فيتمثل في نوع من الصعوبة ناتج عن كون ممارساته بوجهيها النظري والعملي.. استمرت لزمن مديد جداً دام حوالي خمسين سنة، وهو خلال هذه المرحلة الطويلة جداً، والتي راكم فيها الكثير من الانجازات، لم يكن متوافقاً مع نفسه دائما، ولا ثابتا على نفس المبادىء والأفكار والمواقف.. بل انه طور الكثير منها وعدّل بالاضافة أو النقص لدرجة تتباعد فيها مواقفه احيانا وأفكاره الى حد التناقض. فأية مرحلة من بينها إذاً، سنقدمها على غيرها من مراحل فكره وممارسته ؟.

3 ــ أن علالا لم يعبر دائما عن شخصه فقط، وعما يقتنع به هو نفسه أصالة وصدقاً، بل إن الكثير من كتاباته، وبالأخص منها ذات الطابع السياسي ــ التنظيمي (الحزبي)، لم يراعي فيها أساساً التعبير عن قناعاته الذاتية الخاصة قدر ما راعى (وهو شيء عادي) التعبير عما يستطيع به جمع أعضاء حزبه بلغة وفكر توفيقيين يلائمان ويجمعان بين المتناقضات الخارجية ــ الموضوعية لا الذاتية؛ وحينئذ فالاشكال هو : هل سنعتبر كتاباته الحزبية تعبيراً عن فكره الخاص أيضا ؟ أم لا ؟.

4 ــ وأخيرا فان علالا كتب (وأبدع) في عدة ميادين بشكل لافت للنظر عند مقارنته بأي من غيره.. هذا اضافة الى غزارة ذلك الانتاج وخصوصا ما كان شفويا منه في الأصل ونقل عبر الصحافة المكتوبة ولكنه ما زال حتى الآن لم يجمع بعد، فأي جانب أو مجال من مجالات اهتمامه سنعتبره أصلح من غيره لاستكناه خصائص فكره، فيه بالذات.

إن حل الاشكالات أعلاه لن يتأتى، مؤقتا وفي حدود المهمة المطروحة علينا، سوى بالتركيز على المنطلقات الايديولوجية الأساسية لفكر علال. تلك المنطلقات التي مثلت شبه « ثوابت » في كل متغيرات كتاباته وخطبه ومواقفه وممارساته السياسية، وهي بالفعل ما يُمثل الأساسي في كل ذلك.

وبما أن علال سهّل الأمر علينا بتلخيصه وجمعه لتلك المنطلقات الأساس، في كتاب وحيد ورئيسي في هذا الصدد، الا هو «النقد الذاتي» فإننا من جهتنا سنركز على قراءته ونقده، مستعينين أحيانا وعلى وجه الاستئناس أو التتميم بغيره من الكتابات التالية عليه.

قضايا الفكر السلفي عند محمد علال.

1 ــ إن «..جيش الغزو الفرنسي الذي فرض حمايته على البلاد، جيش غايته القضاء على الاسلام وإحلال المسيحية مكانه، لا مجرد غزو استعماري يبحث عن مصالح مادية» وإذن فإن « النقد الذاتي» يعتبر أن التناقض الرئيسي مع المستعمر ذو طبيعة دينية بالأساس، وليس حدثا اقتصاديا ــ سياسيا أو حتى اجتماعيا. ومن ثم فمشكل المغاربة كأمة مقهورة هو مشكل ديني لا حل له سوى عن طريق بعث ديني جديد. وينتج عن ذلك أن الهدف سيتحول عند علال من هدف للتحرير الوطني السياسي والاقتصادي..الخ الى هدف المحافظة على الدين من الخطر الماحق والمحدق أولا وبالذات، وسيكون العمل السياسي ثانيا وسيلة فقط لتحقيق نفس هدف المحافظة.

2 ــ بعث العقيدة الدينية النقية والأصيلة والموروثة عن السلف الصالح، والمفتقدة نتيجة تخلي الأجيال المتلاحقة عنها، يقول : «إن الحركة السلفية هي التي تريد الرجوع بالدين إلى أصله الأصيل ومصدره النقي، لتزيح عنه كل ما ألصقته الأجيال به من آثار الجمود والجحود، وما غطت حقائقه الناصعة تأويلات المتطفلين وتحريفات الجاهلين» وهو في هذا المعنى لا يختلف في شيء عن كل السلفيين قبله.

3 ــ إيقاظ الوعي ونشر التجديد الفكري وتطويره على مختلف المستويات، ولكن دائما بشرط واحد وأساسي هو أن يتحقق ذلك في اطار مبادىء الدين. «..فهي (السلفية) حركة تتطلب فتح الذهن البشري لقبول ما يلقى اليه من جديد، وقياسه بمقياس المصلحة العامة» وذلك من أجل :

4 ــ «...إرجاع المجد العظيم الذي كان للسلف الصالح في حظيرة الايمان وحظيرة الاعمال».

5 ــ وهو يعتقد أن الدين الاسلامي شامل في مبادئه ومناهجه وأهدافه ... لمجموع القضايا والحاجيات المعاصرة، على جميع الاصعدة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية... ولذلك فلا حاجة بنا الى أن نأخذ عن الغرب شيئا من فلسفته أو ثقافته أو حضارته الا إذا كان ذلك على سبيل الانتقاء لما يصلح بالاسلام، (ومع استثناء تقنيته طبعا)، يقول «نحن نعتقد أن الاسلام، ومعه الوطنية، يستطيع أن يمزج كل ما في الفلسفات والنظريات الغربية من حياة وحركة، ويتعداها بما هو خالد أبدي (الايمان) ». وهو في هذه النقطة يغالي، وربما يتجاوز في ذلك سلفيي الشرق، لدرجة يعمى فيها بصره عن كل الحقائق الماثلة بين يديه، مصراً على موقف ذاتي وروحي صرف يتجاوز حقائق الواقع وحقائق التاريخ من أجل هدف واحد هو خلق الثقة بالذات والايمان بأن المستقبل هو للإسلام وللمسلمين.

6 ــ رفض فكرة لائكية نظام الدولة «السلفية.. ترفض بالطبع فكرة لا دينية الدولة، وبذلك تجعل الحكومة الاسلامية حارسا على الاخلاق والفضيلة في وسط الأمة» والقانون من جهته يجب أن يستمد من الشريعة الاسلامية، وعليه «.. يجب العمل على أن يصبح منظوراً للفكر الاسلامي، أصولا وفروعا، كمادة تشريع مدني عام».

7 ــ التفريق بين دين النص الأصلي والدين في الواقع الفعلي، وبالتالي (فتأخرنا) ناتج ليس عن الدين الأصلي كما كان، بل عن افسادنا لمبادىء الدين الحقيقية وأصول العقيدة «.. من العبث أن نعتقد أن ماهو جار في بلادنا من مظالم، أو ما نحن متمسكون به من قبائح هو أثر من آثار الاسلام (...) إن تحريف الاسلام واقع في بلادنا منذ زمن بعيد».

8 ــ وإن مصدر هذا التحريف يرجع في نظر علال إلى أسباب ثقافية سياسية. وأهمها أن «.. التعليم الديني نفسه أعطي لنا بالكيفية التي ترضي رجال السلطة والمال من أبناء قومنا أولا ثم من الأجانب ثانيا» وإذن فالحل سيكون باصلاح طرق ومحتويات التعليم ونشر الدين الصحيح...(؟؟)

9 ــ وهو يوضح ذلك بشكل أكثر تفصيلا عند حديثه عن مظاهر الانحراف الفكري.! واعتبارها المصدر الاساسي لتخلفنا «...إن النكبة من هنا بدأت، من الاحتلال الفكري الذي

تغلغل في نفوس أجيال من قومنا باسم التقدمية والديمقراطية والاشتراكية دون تعمق لمعاني هذه الكلمات ونفوذ فحواها» هكذا بدأ يقتصر على أن مصدر الفساد صادر عن أوربا والغرب المسيحي عموما مهمشاً بهذا، التناقض الفكري الداخلي مع «رجال الدين» التقليديين، فيمسي العدو ليس هو دين الشعوذة والتضليل وإنما هو الفكر الغربي والفلسفة الليبرالية والاشتراكية...الخ.

1 / مثالية الفكر :

إن النزعة المثالية لدى الزعيم تمثل المحور الرئيسي في كل تفكيره. فالفكر (الدين، الأخلاق...الخ) هو أساس كل واقع ومفسر كل تطور اجتماعي أوتاريخي. إن المثال يسبق الواقع، والفكر له الأولوية على المادة، ولهذا فهو يدعو الى الايمان به ويدافع عن حريته ويبشر بالتطور على أساسه، غير أن هذا التطور لا يجوز أن يكون أو لا يمكن أن يكون خارج إطار الدين. في «النقد الذاتي» يقع الحديث مطولا عن كون الفكر (أو العقل) هو أسمى ما في الانسان وأن كل اصلاح للانحراف في الواقع يجب أن يرتبط باصلاحه أولا، وعليه فالامل يجب أن يعقد على من يسميهم بـ : (الارستقراطية الفكرية) أو (الطبقة المتنورة) وهم عمليا النخبة المثقفة دينيا في الأمة الذين يفضلون الآخرين بفكرهم. إن الفروق إذن بين الناس يجب أن تكون انطلاقا من أوضاعهم الاقتصادية ــ الاجتماعية (الطبقية) ذلك لأن الامتياز الاجتماعي هو ناتج أو يجب أن ينتج عن الامتياز الفكري بسموه «الذي يستطيع التحرر من القيود التي تحيط به من كل الجهات، ويسمو فوق آفاق النظر العالمي يشرف على كل شيء من المحل الأرفع» وهؤلاء النخبة المفكرة «هم الجديرون بالفكر وإن أدعى الناس مشاركتهم فيه».

2 / الدعوة للارستقراطية :

«الارستقراطية شيء ضروري لتوجيه الأمة» وهذه الفكرة، وأمثالها، هي ما يظهر، المضمون الاجتماعي (الطبقي) للدعوة السلفية ــ الوطنية عند علال. فمن هم هؤلاء الارستقراطيون الذين لهم الحق في قيادة الأمة نحو صلاحها؟ إنهم عمليا الفئات والطبقات المحظوظة ماديا في المجتمع، وإلى جانبها بعض المثقفين من أبناء الشعب الكادح ممن سمحت لهم ظروف استثنائية باكتساب الثقافة «الرفيعة» فتقع «سرقتهم» من طبقاتهم الاصلية من طرف الطبقات الأرستقراطية الحاكمة.

ومن الشروط التي يضعها علال لهذه (الطبقة المتنورة) حتى تكون ارستقراطية بحق، أن تعمل على الانفصال أكثر عن الشعب وأن تبتعد أكثر ما يمكن من الواقع المادي، وتكتفي بالعيش والتمتع في عالم الفكر المحلق بعيدا من حضيضهما. يقول : « وإذا أردنا أن نكون من نفوسنا هذه الطبقة الرفيعة من جهة الفكر وجب علينا أن نتعود التحرر تدريجيا من منطق الشارع (يقصد الشعب طبعا) والترفع قليلا عن التأثر بواقعية الحياة..»

هذا النوع من التفكير هو ما دفع بفئات من البورجوازية المغربية لأن تتبنى علال الفاسي، وتلتف حوله وتضعه في موضع الزعامة منها.

3 / المجتمع وأخلاقه :

الاستاذ علال لا يرى من واقع الاستعمار أو التخلف أو التبعية عموما، مظاهر البؤس الاجتماعي... : الاستغلال ــ الفقر ــ الجهل والمرض.. بل فقط : فساد الأخلاق وتدهور القيم وفقدان مظاهر الاصالة والتراث ! وإن هذه النتائج لهي الأهداف الحقيقية والبعيدة للغرب ومخططاته الاستعمارية (الصليبية) منذ القديم وحتى اليوم. هكذا يختصر علال الكل من الجزء، ويقلب العلاقة بين المجتمع وبين أخلاقه فيصبح الأول نتيجة للثاني، والحل لن يكون في هذه الحالة سوى من نفس الطبيعة : مثاليا، عقيما عند اكتفائه بالاخلاق والقيم وبالاصالة والدعوة للرجوع الى نمط حياة و(أخلاق) السلف الصالح.

في العمق أساس هذا الطرح وهذه الرؤية طبقي بورجوازي، ذلك لأن علالا ومن كان يتحدث بالنيابة عنهم، لم يكن يعاني ماديا من القهر الاستعماري ما يحس به ويتألم له في معاشه.. على غرار الشعب، بل على النقيض من ذلك، بالنظر لكون البورجوازية المغربية في مطلع القرن العشرين خصوصا كانت في أهم فصائلها من صنع الاستعمار نفسه، فربطت بينها وبينه أواصر مصلحة مشتركة، ولم يبق من «خلاف» بينهما سوى على صعيد (الأخلاق) و (القيم) !؟

ــ تقويم عـام :

1 ــ في حديثه التقويمي لشخصية علال زعيم وكمفكر، يقول الاستاذ **عبد الله العروي في كتابه « الايديولوجية العربية المعاصرة »** : « وكما أن محمد عبده لم يكن الناطق بلسان البورجوازية التي كانت في بدء تلجلجها، فإن علالا لم يكن، وليس هو اليوم، التعبير عن الوعي البورجوازي وإن كان يمكننا أن نجد في كتاباته، وليس ذلك مدهشا البتة، عناصر لا تتضح الا بمستلزمات غد بورجوازي مفترض (...) بل إنه يمثل مرحلة من ثقافتنا العصرية وعملية تبنيننا ».

إن اعتبار الاستاذ علال فكراً وممارسة لحظة من التاريخ القومي لا يحل المشكل، ذلك لأن كل إيديولوجية طبقية يمكن اعتبارها لحظة من التاريخ، ولكن السؤال يبقى هو : عمن تعبر هذه (اللحظة) من الطبقات الاجتماعية ؟ ذلك لأنها لا يمكن أن تسقط من فوق ودون أساس مادي في مجتمع يستبطن في أحشائه صراعا وتناقضاً، فهي من ثم إما مع هذا الطرف من الصراع أو ضدا عليه. والعروى نفسه يقر بأنها تحمل « عناصر من غد بورجوازي.. » وإذن ففكر الاستاذ علال إذا لم يكن انعكاسا تعبيريا عن واقع في ثباته، فهو انعكاس عن واقع في حركته أي باعتبار ما سيكون عليه. ومن ثم فعلال الزعيم والمفكر قد مثل الوعي البورجوازي في المغرب في طور نشأته الجديدة ونموه في ظل الاستعمار، مقدما له تطوره المحتمل و « المفترض »

2 ــ في محاضرة للأستاذ محمد علال بالأزهر حول الحركة السلفية في المغرب يخرج بخلاصة نقدية وتقويمية تقول : «..إن السلفية فشلت كلما خرجت من طور البحث النظري الى طور الحركة العملية » وهذا الحكم من الزعيم ربما يصدق عليه أكثر من غيره، ذلك أن

فشله هو نفسه يرجع كذلك الى نفس ذلك الاعتبار، الشيء الذي ينقلنا إلى سؤال آخر أعمق لا يستطيع هو أو الفكر السلفي عموما أن يجيب عليه : لماذا يقع الفشل كلما انتقل هذا الفكر من النظر المجرد إلى الممارسة العملية ؟ هل يرجع ذلك إلى أسباب محض تقنية وعملية فقط (تطبيقية) ؟ أم إلى أسباب بنيوية ــ ومضمونية تكمن في طبيعة المبادىء والمنطلقات نفسها ؟.

ونحن نرى أن الجواب الثاني هو الأصح والفعلي، ما دام الجواب الأول يتضمن هو نفسه سؤالا آخر : لماذا يقع الفشل عند التطبيق ؟.

ــ ملحق : اسهامـات :

بالرغم من أن البعد والمحور الفكري للأستاذ والزعيم محمد علال يمثل بحق ما هو رئيسي وباق من نشاطه على المستويين النظري والعملي، فإن هذا البعد مع ذلك لا يمكن أن يستنفد كل جوانب شخصيته، إن مجالات أخرى ابداعية وثقافية عامة والمجال السياسي المباشر كذلك قد أخذت منه نصيبها الوافر وأمدها بعطاءات جلى.

والملاحظ أن ما قنّن هذا الوجه الأخير البارز من نشاطه هو نفسه ماحكم ويحكم كل ممارسات البورجوازية المغربية على الصعيد السياسي وهو التردد والتذبذب والتأرجح بين مواقف تصل الى حد التناقض والتطرّف بين اليمين واليسار. والذي يحكم هذا التأرجح هو طبيعة الصراع بين القوى الاجتماعية الأساسية في كل مرحلة مرحلة، فإذا كانت حركة الجماهير قوية وطاغية وجدنا استاذنا يتخذ مواقف تسايرها في جذريتها.. وإذا كان العكس فهو من جهته ينتكص نحو مواقف ذاتية ومثالية.

وفيما يلي سنأخذ للأستاذ علال بعض مواقفه واسهاماته في مختلف تلك المجالات كنماذج لا تستنفذ الكل. في منهج ترقيمي وبدون تحليل أو نقد :

أ ــ وحدة المغرب العربي : وقد كان من أكثر الدعاة للفكرة اقتناعا وايمانا بها، سواء في مرحلة الصراع الوطني ضد الاستعمار القديم أو الاجتماعي ضد الاستعمار الجديد، وقد كان من رأيه أنها ضرورة من جميع النواحي وأن أي حل من أي مستوى ولأي صعيد لا يمكن تحقيقه على أساس قطري بل فقط بوحدة جميع بلدان المغرب العربي.

ب ــ وحدة التراب الوطني : وقد اشتهر الزعيم علال بخريطته التي عرفت باسمه والتي لا تعترف بحدود المغرب يومئذ وحتى الآن، وتمدها شرقا لتضم تيندوف وشنكيط وجنوبا ليضم الصحراء الغربية وموريطانيا وشمالا ليسترجع سبتة ومليلية والجزر، وقد خصص لدعوته تلك جريدة خاصة هي (صحراؤنا).

ت ــ الأرض لمن يحرثها : وقد استمر دائما متشبثا بحق المغاربة في استرجاع أراضي المعمرين وحق الفلاحين في امتلاك الأرض التي يحرثونها بأنفسهم مباشرة، معتبرا أن المسألة تتجاوز كونها قضية اقتصادية واجتماعية، لتصبح ذات طابع ديني باعتبار أن الأرض في الاسلام لا يصح أن تملك فرديا وعينيا، بل هي ملك للأمة تنيب عنها فيه من ينتفع بها مباشرة.

ث ــ برنامج التعادلية : وهو برنامج اقتصادي ــ اجتماعي.. اقترحه علال على حزبه (حزب الاستقلال) وتبناه هذا الأخير، وهو يقضي باستمرار الحق في الملكية الفردية... ولكن شرط ألا تكون استغلالية(!؟) بل مبنية على تعاون بين رأس المال والعمل، واقتسام الأرباح بينهما. وهذا في نظره الأسلوب الذي يمكن أن يخرجنا من خطر الصراع بين الطبقات، إلى حل التوافق والانسجام بينهما على أساس التعاون.

ومن الواضح أن هذه الرؤية للمشكل الاجتماعي وهذا الحل المقترح له.. ليسا بريئين من « أوساخ » الصراع بل على النقيض فهي نظرية بورجوازية صرف تستهدف تنويم وتكبيل الطبقات الاجتماعية الكادحة والمستغلة، حتى تقبل وضعية استغلالها برضى منها.

ج ــ وفي الميدان الاجتماعي : ساهم علال عدة اسهامات ايجابية واتخذ عدة مواقف متقدمة ومشرفة ومن ذلك :

ج 1 ــ رئاسته الفعلية للجنة تشريع مدونة الأحوال الشخصية (1957) حيث طور ــ واعتمادا على منهج التلفيق الذي اقترحه قبله محمد عبده ــ التشريع الاجتماعي في ميدان العلاقات العائلية والأحوال الشخصية، مستفيداً في ذلك من جميع المذاهب الفقهية التي تسعفه وبالأخص منها : مالك ــ الشافعي ــ ابن حزم و ابن تيمية.

ج 2 ــ موقفه من مسألة (الوالدية) وذلك عندما قررت الحكومة أن تنتهج سياسة (تحديد أو تنظيم النسل) كاختيار أساسي من اختياراتها، فقام علال قومة المناوىء والمناهض الذي لا يتراجع ضدا على هذه السياسة وعلى التحليل المغلوط الذي تقوم عليه، فاضحا حقيقتها الاستعمارية واعتراضها لمبادىء الدين الحقيقي.

ح ــ وعلى الصعيد الثقافي فإن أهم اطروحة للاستاذ علال فيه هي ما أسماه بـ (الأنسية المغربية) وهي في اعتباره ما يقابل L'humanisme في التاريخ الثقافي الأوربي. وهي عنوان لمشروع ثقافي فكري وحضاري... عام يقدمه كبديل لواقع ثقافي ــ حضاري يعتبره علال غير وطني سواء من برامج ومناهج تعليمنا أو وسائل إعلامنا أو ثقافتنا الشعبية.. الخ يجب أن يعوض بمقومات جديدة ذات طابع مستمد من حقيقتنا التاريخية واللغوية والدينية وذلك بتحقيق التعريب الشامل أولا ومغربة برامج ومناهج التعليم مضمونيا ثانيا والحيلولة دون تسرب التأثيرات السلبية للثقافات الأجنبية... الخ... الخ.

خ ــ وفي ميدان الآداب خلقا وعلما.. أسهم علال اسهامات جلى خصوصا في ميدان الشعر حيث ساهم في تجديد الشعر المغربي وفي ربطه بمنجزات التطور التي حصلت في المشرق. وكذلك أسهم ايجابيا في ميدان التاريخ الحديث المغربي منه خاصة، كما أسهم في ميدان الدراسات التراثية لقضايا واعلام الثقافة العربية ــ الاسلامية. وفي ميادين النقد الأدبي والدراسات اللغوية والمقالة الصحفية : السياسية والأدبية.. كل ذلك وغيره لم يقصر فيه شأوه عن شأو الاعلام المحدثين في هذه الميادين.

ثالثاً : الأستاذ محمد المختار (السوسي)

ولد المختار بن علي الدرقاوي في مستهل القرن العشرين (1903) بقرية (إلغ) ــ ناحية تازروالت ــ ببيت يعتبر في نفس الوقت زاوية دينية للطريقة الدرقاوية، ومن أب كان شيخا لها (علي الدرقاوي)، وأم مثقفة هي ابنة شيخ من أهم شيوخ عصره في علوم المرحلة (محمد بن العربي الأدوزي). تلقى تعليمه الأول بالمنزل وعلى يد أمه، حيث حفظ القرءان وتعلم الكتابة. وبعد ذلك ارتحل إلى مدرسة (تانكرت) بإيفرن، حيث تابع دراسته على يد شاعر المنطقة الكبير (الطاهر بن محمد الأفراني).

توفي عنه أبوه وهو في سن العاشرة من عمره. وفي سن العشرين انتقل إلى الجامعة اليوسفية بمراكش، حيث سيبدأ أول تحول في حياته «...ثم في سنة 1342 هـ ــ 1923 م، طلع علينا السعد بطلوع الشيخ أبي شعيب الدكالي، فكان ذلك في حياته إجافة لباب وفتحا لباب آخر» وذلك عندما زار الشيخ الدكالي الجامعة اليوسفية.

وبعد ذلك بسنة فقط، أي حوالي سنة 1924، سيسافر المختار إلى فاس مع أخوين له تكفل بالانفاق عليهما من مجهوده الشخصي. وهنالك سيحصل له تطور أكثر أهمية بالنظر لعدة مستجدات أهمها :

1 ــ التقائه بالشيخ محمد بن العربي العلوي ودروسه السلفية التنويرية، وقد كان المختار ينعته (بموقظ الهمم)

2 ــ صحبته للنخبة المثقفة في ذلك العهد سواء من فاس أو من كان يردها من الرباط أو تطوان...محمد ابراهيم الكتاني ــ محمد غازي ــ محمد علال (الفاسي) ــ المكي الناصري ــ بلافريج ــ محمد و/عبد السلام بنونة، ومكوار... يقول حول هذه المرحلة وحول أشخاصها : «وفي فاس استبدلت فكراً بفكر... فتكون لي مبدأ عصري على آخر طراز قد ارتكز على الدين والعلم والسنة القويمة، فجشت بقصائد حية (....) ومن هناك تمخضت الفكرة الوطنية المرتكزة على الدين والاخلاق السامية، وكنت أصاحب كل المفكرين إذاك، وكانوا نخبة في العفة والدين، وكانوا ينظرون إلى بعيد».

وبعد أربع سنوات من التحصيل بفاس سينتقل سنة 1928 نحو الرباط حيث سيلتقي نخبة أخرى من العلماء والأصدقاء، فمن الأولين تلقى دروساً من أقطاب السلفية في العاصمة حينئذ : الشيخ أبو شعيب ــ المدني بلحسني ــ ومحمد السايح، وسيلتقي كذلك أدباء وشعراء العدوتين أمثال : محمد القباج، محمد بليمني الناصري، محمد التطواني، وعبد الله الجراري، وأبو بكر بناني...وسيضيف بتلك الدروس وبتلك الرفقة علما وثقافة سيؤهلانه ليصبح أستاذا مبرزاً عند رجوعه إلى مراكش في السنة التالية (1929).

وقد عمد إلى الزاوية الدينية «الدرقاوية» فحولها إلى مدرسة لتعليم الصبيان مقتديا في ذلك برفاقه بفاس، حيث حول محمد غازي قبله الزاوية الناصرية إلى مدرسة للتعليم وإشاعة الفكر السلفي. وقد طور المختار الفكرة حين أصبحت المدرسة على يديه ذات نظام (داخلي) يصل

حدود الصرامة في الانضباط. وبشكل مواز لذلك سيقدم دروساً عامة، مسائية وليلية بالمسجد الجامع لنفس الحي الذي تقع به الزاوية (باب دكالة)، وفي هذا الوقت كذلك وسع نشاطه نحو المجال الاجتماعي عندما ترأس صندوق «الجمعية الخيرية» حيث ستكون بداية اصطدامه مع المستعمر، وبهذا ستلحقه حملة القمع التي شملت أغلب قادة الحركة الوطنية سنة 1936، وكان من نصيبه نفي إلى قريته (إلغ)، استمر تسع سنوات، هي بالذات التي ستمثل أزخم مراحله في التأليف التاريخي خصوصاً. وفي سنة 1945 سيعود إلى مراكش بحماس أقوى للعمل الوطني على صعيد التوعية ونشر الفكر السلفي، وسيصادف وقتها بداية الحملة الوطنية لبناء المدارس الحرة، فيرأس نخبة بناء مدرسة محمد الخامس، ويستمر على دروسه الوعظية، وفي 1946 سيسافر حاجا ضمن الوفد السلطاني. وفي 1948 سيسافر نحو تونس في مهمة رسمية كذلك (حول الأوقاف)، وعند بروز الأزمة الوطنية في الخمسينيات سيشمله الاعتقال إلى جانب بقية قادة الحركة الوطنية حيث سيقضي سنتين بقلعة «أغبلون كردوس». وعند تشكيل أول حكومة وطنية في 1956 سيتقلد منصب أول وزير للأوقاف ثم سيتولى في الحكومة الثانية ــ 1957 ــ منصب وزير مستشار في مجلس التاج. وفي 1963 توفي اثر حادثة سير !

إن أحسن ترجمة وتلخيص لحياة السيد المختار هي قوله حينما سئل عن سبب عدم كتابة ترجمة ذاتية له رغم أنه لم يترك أحداً من شخصيات منطقته (سوس) كان كبيراً أو صغيراً دون أن يترجم له : «هذا العمل كله إنما هو ترجمة نفسي وقصة حياتي» وبالفعل فكتاباته الكثيرة هي ملخص كل حياته، ولم يكن له شيء آخر غيرها.

المختار كاتبـا :

تميز، كما سبق إلى ذلك القول، نشاط صاحبنا بغلبة أسلوب الكتابة على غيرها من أنواع نشاطاته الأخرى، وتمثل ذلك بأحد الشكلين : 1 ــ المقالة 2 ــ تأليف الكتب المتخصصة أو العامة والموسوعية. وقد كان الشكل الثاني هو الأغلب في ممارسته للكتابة.

وفي هذا المجال نلاحظ أن مناحي تأليفه توزعت بين اتجاهات ثلاثة : 1 ــ في الدين والعقيدة 2 ــ في التاريخ 3 ــ في الأدب، غير أن كتاباته وتآليفه ذات الموضوع والمنحى التاريخي ترجحت على غيرها من أنواع كتاباته الأخرى.

التأليف التاريخي : وفي هذا الصدد كذلك لا نجدنا أمام شكل واحد لممارسة التأليف التاريخي، بل أمام أشكال متعددة بتعدد ملابسات الواقع وملابسات الفكر في حياة صاحبنا، ويمكن اجمال ذلك في :

أ ــ المذكرات : وقد عني المختار بكتابتها في الفترات الصعبة والمراحل الحرجة في حياته التي لم تكن سوى حياة أمته في نفس الوقت.

ب ــ الترجمات : وهي طريقة غالبة على كتابته التاريخية وبهذا فقد ترجم في «المعسول» لمئات الشخصيات السوسية وفي غيره ترجم ترجمات خاصة لأبيه مثلا أو لبعض من أقطاب الطريقة الدرقاوية.

ت ــ الرحلات : وهي على قلتها كممارسة، بالنسبة للمختار، فإن ما قام به منها مختارا أو مكرها كان كافياً وحده ليدفع إلى الكتابة كذلك في هذا النوع من الأدب التاريخي.

ث ــ التاريخ التسجيلي للوقائع والأحداث والمأخوذ مباشرة من أفواه الناس مادة خاما، دونما تنخيل أو مراجعة...

ج ــ التاريخ كما تعرفه وتعترف به العلوم الانسانية اليوم أي المنهجي والمسؤول عند تنظيم الوقائع أو عند تحليلها أو في اصدار الاحكام عليها، وهذا النمط هو ما استفرغ جهود كاتبنا في المراحل الأخيرة من حياته، وانتج عطاءه الهام جداً من حيث قيمته العلمية والتاريخية «إليغ قديما وحديثا»

وفي هذا الصدد يمكننا أن نقدم جملة ملاحظات أولية :

1 ــ أن الكتابة التاريخية لم تكن بالنسبة للسيد المختار اختياره واهتمامه الأول ولا من طبيعة تكوينه الثقافي الذي تلقاه سواء في الطفولة أو في مرحلة الشباب. لقد كان الشعر هو هوايته و وكده أما الاهتمام بالكتابة، وبالأخص ذات المنحى التاريخي، فقد حصل لأول مرة عند رجوعه من فاس نحو الرباط قاصداً مراكش ثم انتقاله منفياً إلى قريته (إلغ) التي عانى فيها من ظروف قهر قاسية جداً عبر عنها بكلمة (غربة) :

حقاً رجعت لموطني لكنني لاقيت فيه غربة الأحرار

وإذن، فقد كانت ظروف الغربة «في» الوطن، والقهر الاستعماري والعزلة والابعاد عن «المدينة» بثقافتها ومثقفيها... هي التي دفعت بصاحبنا إلى الاشتغال بالكتابة والكتابة التاريخية بوجه خاص مع التركيز بالأخص على التاريخ الممكن بالنسبة إليه في تلك الظروف، ألا وهو تاريخ منطقة سوس، أعلامها ومعالمها.... والتي توفر له عنها الكثير من أفواه رجالاتها الأحياء ومن مكتبات مدراسها.

بعد تسع سنوات استغرقها النفي واستغرقها بالتالي هذا المجهود الضخم جداً في الكتابة فكانت أفقر مراحل حياته الشخصية واغناها عطاءا وبذلا من الناحية الثقافية، عاد إلى مراكش ليخمد هذا النوع من النشاط نسبيا، مفسحا المجال مؤقتا للعمل الاجتماعي ــ السياسي، ولنشر الوعي الديني ــ السلفي على سبيل الخطاب الشفوي، قبل أن يعاود ازدهاره من جديد بعد «الاستقلال» في مرحلة سيجد فيها المختار نفسه شبه معزول، ومنفي في وزارت «ــه» والأكثر من ذلك في مغرب لم يستقل بالنسبة إليه وإلى أمثاله إلا شكلا فقط، فأحس عندئذ بغربة مضاعفة لم تكن هذه المرة في (المكان) وحسب بل وعن الزمان وعن «أهله»

في كلتا الحالتين ــ المرحلتين، المنفى الأول في (إلغ) أو المنفى الثاني في (المغرب الجديد) مغرب الاستقلال الاستعماري... سنلاحظ أن السيد المختار عاش حالة قلق نفسي وتوتّر ذهني ناتج عن تمزق بين عدة تناقضات لم يستطع لها، وهو الصوفي ابن البادية المسالم، حلا سوى في نوع من «الهروب» إلى التاريخ سواء من أجل التأسي به أو من أجل البحث عن (تفسير موضوعي) لفشل «ــه» الشخصي كمثقف ملىء بالنوايا الطيبة أمام (واقع) أو (وقائع مليئة بالنقيض.

وبالطبع، فإنه على مستوى الحكم اليوم، يمكننا القول بان اختياره ذاك لم يكن الأفضل يومها ولم يكن الأسوأ كذلك، إنه نفس اختيار محمد داوود مثلا. في الوقت الذي اختار فيه آخرون الهروب إلى الزهد عن طريق (الجوار) في مكة والمدينة (محمد غازي مثلا) وآخرون الاصلاح أما من داخل السلطة أو من خارجها وضداً عليها سيان في الأخير.

2 ــ إن السيد المختار لم يهتم في تاريخه سوى بمنطقة واحدة أساسا هي : سوس، ولم يكن هذا الصنيع منه بدعا في المحيط الثقافي لتلك المرحلة، بل على النقيض من ذلك، فقد اتجه أغلب مثقفيها (العلماء ــ الفقهاء...) إلى التأريخ لأقاليمهم الخاصة، ولم تكن هذه الظاهرة في المرحلة الاستعمارية السابقة تعبر ــ كما هو حاصل اليوم ــ عن منحى اقليمي ــ انعزالي ــ رغم ظروف نشأتها المرتبطة حقا بذلك ــ بل إنها كانت على النقيض من ذلك تماما فأمام منطق الاستعمار الذي كان ينكر على الأمة المستعمرة مقوماتها كأمة ومن جملة تلك المقومات وجود تاريخ وطني موحد ومزدهر لها، عمد المثقفون إلى كتابة تآليف في التاريخ للوطن وتجاوزوا ذلك نحو التاريخ لأقاليمه حتى يثبتوا أن عظمة ذلك التاريخ لا تنحصر في الكل بل إنها تمتد إلى الأجزاء كذلك فألفوا المجلدات من أجل التأريخ لاقليم صغير من الوطن، فكيف بالأحرى سيكون من تم تاريخ الوطن كله غنى وازدهارا (؟!). من هذه نماذج : عباس بن ابراهيم التعارجي، «**حول تاريخ مراكش**» في خمسة أجزاء، «**الاعلام بمن حَلّ بمراكش واغمات من الاعلام**» ؛ وعبد الرحمن بن زيدان **حول تاريخ مكناس** عدة مجلدات نشر منها خمسة؛ محمد بوجندار «**مقدمة الفتح لتاريخ رباط الفتح**»؛ وكذا **عن شالة وآثارها** ؛ محمد بن سعيد الصديقي «**ايقاظ السيرة في تاريخ الصويرة**» ؛ وأحمد الرجراجي «**الشموس المنيرة في أخبار مدينة الصويرة**» ؛ الكردودي حول مدينة «**آسفي وما إليه**»؛ محمد داوود «**تاريخ تطوان**» في 9 مجلدات مازال يتمم بقيتها...إلخ...الخ من كتب التاريخ الأقليمي بل واحيانا التاريخ للقرى أو للاسر...الأسلوب الذي كان سائداً لذلك العهد.

3 ــ واضافة إلى ذلك فعلينا أن نسجل أن المنطقة التي اهتم بالتأريخ لها الاستاذ المختار، لم يسبق لها أن كانت موضوع عناية خاصة لمؤرخ سابق عليه. هذا الوضع الذي يستطيع أن يقوم وحده مبررا لهذا الاهتمام وهذه العناية من طرف المختار؛ شكل في نفس الوقت مصدر صعوبة له إذ أنه وجد نفسه أمام مادة تاريخية خام، فاكتفى عندئذ بنقلها وتقديمها كما توصل إليها في الغالب.

4 ــ ومما يلفت النظر كذلك من تآليفه ذات الطابع التاريخي، ذلك الاهتمام الخاص الذي يوليه للعلم والعلماء والمؤسسات العلمية والتعليمية وقد غلب هذا المنحى على بقية المناحي في تأريخه، وهكذا كتب عن المدارس والزوايا والخزانات الخاصة والعامة وعن الكتب وترجم للعلماء والفقهاء والقضاة وشيوخ الطرق...الخ، وهو بكل ذلك يكون عمليا ــ وعلى مستوى نيته أيضا في الغالب ــ قد أرخ لتاريخ تعريب منطقة (سوس) من جهة وابراز اسهامها الخاص من جهة أخرى في تنمية الثقافة العربية على الصعيد الوطني والعربي عموما، والنتيجة والغاية معا تجسيم واعلان الطابع العربي والعروبي لمنطقة سوس ولسكانها ثقافة وإرادة، وهو رد فعل ضمني للدعوى الاستعمارية السائدة يومئذ (واليوم كذلك) وألقى تفرّق المغاربة إلى (عرب) و

(بربر) فقط لسبب الداعي «اللغوي» الذي أظهر المختار أنه نفسه غير مطروح بالحدة التي حاول ويحاول البعض طرحه بها محرفا إياه من اطاره «الثقافي» إلى مستوى تناقض سياسي، وأفضل مؤلف له في هذا العدد كان «سوس العالمة»

5 ــ من خصائص الكتابة التاريخية للاستاذ الشيخ المختار، اهتمامه بتاريخ الشعب وتاريخ نخبه المثقفة ومؤسساته الاجتماعية ــ الثقافية...أكثر من اهتمامه بالتاريخ الرسمي للسلطة السياسية ومؤسساتها ورموزها القيادية...الخ ويعتبر هذا الميل من كاتبنا ميزة له إذا نحن قارناه بتراث علم التاريخ عربيا ووطنيا. إضافة إلى وجود عامل موضوعي ساعده على ذلك هو أن تاريخ المنطقة (سوس) نفسه هو في وجه منه تاريخ ضعف الروابط إن لم نقل انعدامها مع سلطة الدولة المركزية، مما فرض لها أو عليها تاريخا خاصا وشبه مستقل ضمن التاريخ العام للوطن ولدوله المتعاقبة.

6 ــ تميز تأريخه بنوع من الموسوعية والشمول، تجلى ذلك بالأخص في مؤلفه الضخم «المعسول» حيث تجاوز فيه العناية بالتاريخ العام والسياسي للمنطقة إلى الاهتمام كذلك بالتاريخ الاجتماعي وبتاريخ المؤسسات الثقافية والعائلات والأشخاص النابهين وحتى غير النابهين أحيانا ووصل من كل ذلك إلى حد التأريخ للعادات الاجتماعية.... بل ولعب الأطفال وتنوعها بحسب تنوع المناسبات والفصول. انه بالاحرى معلمة حضارية أو موسوعة أكثر منه تاريخيا وحسب.

ولا يجوز أن تغرب عنا في هذا الصدد ملاحظة هامة تتصل بنوع من المنحى الاثنوغرافي، اللاواعي طبعا، في كتاب «المعسول» خصوصا أن المختار الذي اغتسل في المدينة (مراكش، فاس، الرباط..) وتشبع بقسط وافر من قيمها سيعتبر نفسه من ثم (غريبا في موطنه) «إلغ» عند النفي إليها وبالتالي بداية اهتمامه بالتأريخ لها وللمنطقة ككل، إنه لن يرى بعين «المواطن» : الانسان والأحداث والأشياء... بل بعين «الغريب الحر» كما عبر. هكذا سنحس أحيانا ونحن مع المعسول وكأننا بازاء «مستشرق» يلاحظ كل شيء ويسجل كل ما لاحظه بعين الاستغراب ولهدف التثبيت والتكريس.

في الحقيقة، وفي سبيل البحث عن معنى وسبب الظاهرة غير المعطى السابق (غربة المثقف) يمكننا أن نسجل تداخل عدة عوامل في نفس الآن.

ذلك أنه في الوقت الذي كان هذا الوكد في تسجيل كل صغيرة وكبيرة من أحوال الشعب من خلال أقاليمه، تعني من جملة ما تعني، في وعي وممارسة «البورجوازية» المغربية، نوعا من تحصين الأرث وتكريس المقومات الثقافية ــ الحضارية للامة المقهورة والتي لا قدرة لها ولا لمثقفيها على الحفاظ على بقية البنيات الاقتصادية والاجتماعية أو السياسية بالأحرى أمام الاجتياح الطوفاني للمؤسسات والبنيات الرأسمالية الاستعمارية. فلا أقل إذن من التمسك والتشبّث بما يمكن الحفاظ عليه، أي البنيات الثقافية ــ الحضارية للشعب، للتحصن فيها والتمكن من خلالها من الدفاع عن الذات أمام الغزو الأجنبي الذي لا أمل في إنقاذ «الاشياء» من اجتياحه.

وكأني بالمختار وأمثاله يخاطبون هذه الأجيال اللاحقة بقولهم انظروا لقد كان آباؤكم يلبسون هكذا ويأكلون بهذه الطريقة ويلعب أطفالهم هذه اللعب...الخ وبذلك يمكنونها من العودة إلى «أصالتها» والتحرر من الاستلاب الثقافي ــ الحضاري تجاه الأجنبي. إنه مساهمة في اعادة بناء الذاكرة الوطنية، إنه نوع من التأسيس «للمتحف الوطني» ولكن على صعيد المكتوب.

إنها اثنوغرافيا ولكنها حقيقية، أي علمية، لأنها وطنية لا استعمارية مزيفة ولا «إنسانية».

قلت إنه في هذا الوقت الذي يصح فيه قراءة هذا المنحى هذه القراءة، علينا كذلك أن ننتبه إلى جوانب أخرى في المسألة وفي المقدمة منها أن الاثنوغرافيا كمنهج وكزاوية لرؤية «الانسان» ومحيطه ترتبط نشأة وتاريخيا بلحظة معينة من لحظات تطور وعي (أو لا وعي) الرأسمال الاستعماري، فهي من ثم وفي نهاية كل مطاف ومهما وقعت محاولة استغلالها والاستفادة منها لأهداف مناقضة لأهدافها الاستعمارية الاصلية، فإن ذلك لن يحصل سوى على المستوى «التاكتيكي» الآني والعابر، أما «ايستراتيجياً» فهي تخدم، بخدمتها لمنهج ولرؤية، أهدافها الأصلية. بهذا المعنى مثلا قد يستخدم «المعسول» اليوم لنقيض ما استخدم له بالأمس، بل إنه بالأمس نفسه قد يكون أعطى «سياسيا» نتائج إيجابية تخالف إن لم تكن تناقض تأثيره على المستوى الفكري ــ الأيديولوجي بسجنه إن لم نقل قتله، للانسان (السوسي أو المغربي عموما) في عاداته وتقاليده وأسرته بل وخرافاته وغيبياته.

هكذا إذن تتضح جملة حقائق :

أ ــ إن المثقف وأدوات الثقافة بين يديه لا يمكن، تجاه الواقع، أن يستمر ساكنا ودون فعل ما ايجابي أو سلبي. إن المختار المثقف المرتبط فعلا وانفعالا بمواطني المدينة، سينتزع قهرا من محيطه الملائم ليعزل في محيط آخر مناوىء. عندئذ سيرغم نسبيا على الصمت أو شبهه ليس فقط بسبب من ظروف الأمن بل وكذلك لأن أداته الثقافية المشكلة أصلا في المدينة وها لا تصلح لأحوال البادية وحاجيات مواطنيها، في مثل هذه الشروط من التباعد بل التنافر بين المثقف (المديني) وجماهير البادية / بين الثقافة العصرية.. والثقافة التقليدية.../ بين التأويل البورجوازي للدين (السلفية) وبين الدين الشعبي «الطبيعي»...الخ ماذا سيكون مصير تلك الثقافة «الغازية» ؟ لن يكون وكدها تغيير الواقع والمساهمة في النهوض بوضع المضطهدين فيه.. بل على النقيض من ذلك ربما المساهمة في تكريسه والمحافظة على عناصره ومقوماته الذاتية المكونة باعتبارها ثوابت أصلية وعوامل صنع «السيكولوجية» الشعبية للمنطقة (؟!) فيعتصر من شهدها عسلا يتلذذ برحيقة وطعمه «العجيب» مثقفو المدينة. هكذا فليس من قانون المثقف السكون، بل هو أبداً منتج لقيم ثقافية بشكل من الأشكال وهذه القيم إما أن تكون مفيدة أو ضارة على المدى القريب أو البعيد يحس بذلك أو لا يحس... الخ كل ذلك مرتهن بالظروف والملابسات الخاصة بكل حالة على حدة.

ب ــ إن البعد التحرري والوطني لكل فكر ونضال «للبورجوازية» الناشئة من حضن الوضع الاستعماري، حتى ولوكانت في رموزها الثقافية من مستوى الصدق والصفاء الصوفي للسيد المختار، لا يمكن أن يخرج عن حدود الأفق الاستراتيجي ايديولوجيا وسياسيا للمؤسسة

الرأسمالية الاستعمارية نفسها. وإن التناقض بينهما له حدود يقف عنها دائما.

ت ــ إن مسألة التباعد وحتى التنافر اللغوي بين المعربين والثقافة الفرنسية مثلا لا يكفي وحده حاجزا لمرور التأثير من الطرف الأقوى والسائد نحو الطرف الأضعف والتابع، هكذا فبحسب المناخ الثقافي العام والسائد، وبسبب من المصالح الاستراتيجية المتقاربة وكذلك بسبب من الوسطاء الثقافيين للفكر البرجوازي الغربي (المثقفين بالفرنسية الذين خالطهم المختار وأمثاله في اطار الحركتين السلفية ثم الوطنية) سيجد المختار نفسه يفكر احيانا تفكيراً (فرنسيا) رغم أنه بلغة عربية ونوايا عربية واسلامية فوق ذلك، إن اللغة هي مادة التفكير حقا ولكنها ليست هي هو في كل الأحوال.

7 ــ ومن حيث مسألة المنهج التاريخي المستخدم من طرف صاحبنا نلاحظ أنه في عمومه وعلى مستوى مختلف الموضوعات والكتابات :

1 ــ لم يكن واحدا ولا قارا، مع تنوع المادة التاريخية واختلاف ظروف الكتابة

2 ــ كان يتراوح ، ويعلو ويهبط بين ثلاثة اتجاهات رئيسية فهو إما :

أ ــ يجارى طريقة القدماء في التاريخ من نموذج «الطبري» مثلا : الاستقصاء في جمع المادة التاريخية، وتركيم أكثر ما يمكن من المعطيات والمعلومات المفصلة عن الاحداث وعن المؤسسات والأشخاص. مع ضعف أو حتى نوع من عدم الاهتمام أصلا بتعليل الحوادث وتفسيرها. أو الاكتفاء في ذلك بالرجوع إلى «الدين» والتفسير بالروحانيات والخوارق للعاديات (البركة ــ الرؤى...مثلا) مع قلة التمحيص للاخبار والنقد لها..

ب ــ أو هو يقصر عنهم وعن سابق قصد وتعمد، حين يكون همه هو جمع المادة التاريخية فقط دون اهتمام بفحصها أو تنظيمها وتصنيفها واحرى بنقدها، وهدفه حينئذ يقتصر على انقاذها بتكريسها في كتب خوفا من ضياعها بموت من يرويها عنهم، مهيئا إياها مادة خاما للذين سيعقبونه وتتوفر لديهم أدوات كتابة التاريخ على أسس موضوعية وبمنهجية علمية، فيجدون شيخنا قد وفر عليهم جزءا من الجهد بتوفير المادة لهم. يقول هو نفسه في « سوس العالمة » : « إنني ما عدوت أن جمعت ما تيسر جمعا بسيطا وكيفما اتفق، بقلم متعثر، واسلوب لا يزال يتبع خطى اساليب القرون الوسطى ».

ت ــ أو هو يتجاوزهم ويجاري أحدث مناهج التاريخ العلمي، فهو مثلا يستقي مادته التاريخية من مختلف مصادرها العربية أو الاجنبية لافرق، وعندما تعجزه اللغة يبحث له عن مترجم كفء وأمين (من البرتغالية مثلا) وهو كذلك يمحص الخبر وينتقد مختلف رواياته بمحك العقل والمنطق، مع شمول في النظرة ومراعاة تعدد العوامل لصنع الحادثة الواحدة. وكذلك فهنالك تنظيم وتبويب وتصنيف بحسب الاهمية وبحسب التعاقب الزمني وبحسب علاقة السبب بالنتيجة، كل ذلك تتحكم فيه نوع من العقلانية والرؤية الموضوعية والواقعة ــ المادية للحوادث والتواريخ... وقد انجز اغلب ذلك من واحد من أهم منجزاته على هذا الصعيد، بل ومن كتاب يعتبر من أفضل عطاءات ادبيات علم التاريخ في المغرب « اليغ قديما وحديثا » هذا المؤلف الذي لا يقصر شأوا كاديميا عما يقوم في جامعاتنا اليوم.

المختار شاعـرا

عرف السيد المختار بكونه كان شاعراً غزير الانتاج، قوي العارضة طويل النفس الشعري... قبل أن يعرف كاتبا. وهو نفسه يعتبر انتقاله من الشعر والادب عامة نحو الكتابة (التاريخية ــ الدينية... الخ) حدثا اضطراريا جاء نتيجة ارتحال الكثير من رفاقه في الثلاثينيات نحو المشرق العربي، وبقائه « منفردا » بالعلم والثقافة في مراكش، يقول :

خلت الديار فسُدت غير مسوَّد
ومن العناء تفرّدي بالسؤدد

هذا مع التنبيه الى انه حتى في ميدان (الشعر) والادب لم يكن يحس بحقيقته وشخصيته، تماما مثلما كان الحال بالنسبة لشكيب ارسلان مثلا ــ الذي كان المختار يجله كثيرا ــ أو بالنسبة لمحمد علال (الفاسي) كذلك. فالشعر (أو الادب) يجب أن يكون اهتماما ثانويا بالقياس الى قضايا خدمة الملة والوطن والنهوض بالمسلمين عن طريق نشر التوعية واشاعة الخدمة الاجتماعية. يقول :

تسفّ عزيماتي وان فاقت الشعرا إذا كان أعلى ما أحاوله الشّعرا

وفي هذا الصدد يمكن ادراج بعض الملاحظات الاولية العامة :

1 ــ ان السيد المختار تلقى أول دروسه في مدرسة عرفت بالاهتمام بالشعر في مناهجها وبرامجها حفظا وقرضا « مدرسة افران »، وكان الاستاذ (الفقيه) بها حينئذ هو (الطاهر الافراني) الذي كان بدوره شاعرا من اكبر شعراء تلك المرحلة التاريخية في سوس والمغرب عموما. هكذا فلم يكن الشعر بالنسبة لاولئك التلاميذ مسألة (ميل نفسي) و (موهبة عقلية) بل درسا نظاميا وثقافة شبه اجبارية وأهم من ذلك مناخا ثقافيا عاما (داخل المدرسة) يمارسه الكل ويتجاوب به الجميع تعاطفا أو تنافرا.

2 ــ كان الطابع العام للشعر العربي بمنطقة (سوس) متأثرا شديد التأثر بنمط الشعر الاندلسي أولا ثم العباسي... إن في اهتمامه بـ (غرض الوصف) وخصوصا للطبيعة أو شديد عنايته بحسن الديباجة وتأنقه في العبارة ورقة مشاعر « مبدعيه » وكذا تراقص الفاظه وموسقة عباراته المنتقاة بعناية خاصة، وشاعرنا نفسه لا يتمنى في هذه المرحلة من تجربته /سيرته الشعرية اكثر من الاقتراب من شاعرية « ابن خفاجة » النموذج والمثال :

ياليت لي من منطق «ابن خفاجة» فيغدو بالوصف المشخص لي، فوز

3 ــ اما بعد انتقاله الى فاس، واتصاله بشباب شعرائها من امثال الاستاذ علال الذين تعرضوا لتأثيرات مكثفة للادب العربي في المشرق الرمانسي والوطني، وفي ظروف بيئة (المدينة) وخصوصا اذا كانت هي (فاس) بالذات... فقد تغير نمط تعبيره الشعري من جميع نواحيه :

ــ فمن حيث الموضوعات اصبحت تدور حول المجتمع وقضاياه وحول الشباب.

ــ وفي المضمونات ستُصبح سلفية ووطنية.

ــ ومن حيث الشكل : ستسهل لغته وتنبسط بعيدة عن التفاصح القديم والجري وراء الغريب...

ـــ اما اخيلته فتُمسي اكثر واقعية وعصرية... وهو نفسه يقول معبرا عن هذه المرحلة الثانية من تجربته الشعرية وهو بفاس :

لم لا أقول الشعر كيف أريد وأنا بنيران الشعور وقود

4 ـــ اما بعد رجوعه إلى مراكش، وبداية انشغاله الى حد الاستغراق بالتدريس الخاص والعام أولا وبالتأليف ثانيا، وحيث اصبحت اهتماماته الذاتية تتجه أكثر نحو القضايا العامة والعملية....، فستنضب تجربته الشعرية ويسقط من شعره وسيقتصر فيه من ثم على الاخوانيات والمساجلات وشعر المناسبات أحيانا، متحريا عدم الزج به في الموضوعات التي يعتبرها اسمى من تعبيره الشعري. وسيكون جميع ذلك منه عن سابق اختيار واقتناع/ قناعة.

5 ـــ ومن حيث الخصائص العامة لشعره نلاحظ انه :

ـــ تقليدي في أغلبه يسير على نمط القصيدة العربية التقليدية القديمة ـــ طويل النفس كثيرا ـــ متين اللغة فصيحها نظرا لضخامة مخزون صاحبه اللغوي ـــ غزير الانتاج عددا ـــ يغلب عليه من حيث الاغراض والموضوعات الاتجاه نحو الوصف ونحو شعر المراسلات ـــ الاخوانيات والمداعبات.. الخ.

المختار مفكرا : في الدين والعقيدة

لم يهتم الاستاذ المختار كثيرا بهذا الجانب من النشاط خلال تجربته الفكرية وممارسته الحياتية، فيما عدا طبعا ما كان من ذلك شفويا وفي اطار دروسه الوعظية والتعليمية في المساجد والمدرسة ـــ الزاوية. اما خارج ذلك فقد اعتمد فيه على منجزات وخلاصات غيره من رواد السلفية الذين سبقوه سواء في المغرب أو المشرق العربيين، فاكتفى اجمالا بالارتكاز عليهم والاخذ من معينهم.

ومع ذلك فاننا نلاحظ وجود انجاز له في هذا المجال، كان باكورته الاولى والأخيرة : كتاب « الاسلام بين الجمود والجحود » الذي نشره في حلقات متتابعة بمجلة «دعوة الحق» المغربية وقد تأثر فيه بنمط القصة الفكرية سواء جاء ذلك من النموذج الاقرب اليه زمنا وهو (الكواكبي) في مؤلفه « أم القرى »، أو أنه اقتدى مباشرة بنماذجها القديمة الموروثة وفي المقدمة منها « حي بن يقظان » وخاصة تلك التي كتبها (ابن طفيل).

6 ـــ يتخيل الأستاذ المختار أسرة / أنموذجاً تتكون من أخوة ثلاثة ومن علاقات صداقة بينها جميعا مع خارجها، وفي مقدمة هذا الخارج كاتبنا نفسه الذي يتولى عن الجميع رواية القصة. الأخوة أولئك هم أولا تاجر يمتاز باعتداله في كل شيء في تدينه وعقيدته، وفي توزيعه لحياته بين مختلف الواجبات والحقوق بتوازن وعدل، أما الثاني فهو متصوف متبطل يظل يومه ساجدا أو مرددا للأوراد.. والثالث طالب جامعي درس بالخارج (أوروبا) وحصل على شهادة عليا « أهلته !؟» لانكار الدين والالوهية. وستكون مهمة المؤلف ان يجري نقاشات مع الطرفين المتناقضين الجامد منهما (العربي) والجاحد (حماد) وخلال ذلك سيخوض نقاشات مع آخرين موزعين بين تأييد هذا أو تأييد ذاك. و« القصة » تنسج وتنمو اما على سبيل حوارات أشبه بمقالات سجالية ـــ فكرية أو عن طريق رسائل متبادلة بين الكاتب ـــ الراوي و(حمّاد)

خصوصا... وفي كل ذلك سنفتقد العناصر الحقيقية لفن القصة والرواية حتى ولو كانت فكرية. اما عن المضمون الذي يحتويه العمل ويستهدفه (وهو ما يهمنا أساسا) فهو في الجملة مجموعة من مسلمات الفكر العقدي الاسلامي على طريقة الأشعري خصوصا، مدعمة ببعض مبادىء وأسس المنطق الأرسطي (المتضمن على كل في العقيدة الأشعرية إياها) مضافا الى ذلك بعض تجديدات الفكر السلفي الاسلامي الحديث، والنقاش مزدوج في الغالب، فهو من جهة يحاج الملحد الجاحد وهو كذلك من جهة أخرى يرد على المتصوف والفقيه وعلى جمودهما، ولكل واجهة من الصراع ــ الحوار، منطق واسلوب يخصها. ولاشيء بعد كل ذلك غير ما انجزه الشيخ محمد عبده وأضرابه، فيما عدا بعض اللفتات أو « النكات الفكرية » ان صح التعبير والتي نفرد بها وتميز، تقريبا، استاذنا المختار عن كثيرين من رواد أو متبني الفكرة السلفية الحديثة، ومن ذلك :

ا ــ أن رأي وموقف السيد المختار من التصوف والطرقية ومريديهما لا يتخذ مستوى التطرف في المناهضة والصراع الذي قد نلاحظه لدى آخرين من معاصريه كسمة بارزة لممارساتهم ومواقفهم... بل هو على النقيض من ذلك تماما، فهو في الاعماق منه يحتفظ لهم بتقدير وتبجيل كبيرين، وهو يعبر عن ذلك ويصرح به علنا، معتبرا أن جوهر ممارساتهم ومعتقداتهم صحيح في مجمله، وان الخلاف بينهم مع السلفية يقتصر في الحقيقة على تقنيات ووسائل وطرق العمل لا غير لا في الأهداف والمقاصد نفسها. ذلك لأن وسائلهم التي تأخذ بها عليهم السلفية هي طرائق اضطروا اليها نتيجة ظروف خاصة وفهم خاص لتلك الظروف، ومن ثم فالعلاقة معهم يجب أن تكون مبنية على الحوار والتفاهم والاقتناع لا المناهضة والتشهير.

ب ــ ينسب استاذنا الاسلام الى عالم « الروح » وهو بذلك يفرق في الحياة والكون بين مجالي (المادة والروح) ويعتبر أن وسيلتنا في معرفة العالم المادي والتي هي « العقل » عاجزة عن أن تطلعنا على حقيقة (عالم الروح) الذي هو أولى وأجدر بالاعتبار وكذا الأكثر دلالة على الكون والحياة. وسواء في رجوعه الى مفهوم « العقل » أو في ارتكازه على الكثير من خلاصاته في التجربة الفكرية العربية أو الغربية، فانه لا يفعل ذلك سوى في الحدود التي يستطيع بها وفيها تدعيم فكرته المغرقة في المثالية عن وجود عالم مستقل تماما للأرواح عن عالم « الماديات » وفي هذا كذلك يختلف كبير الاختلاف عن أهم تيارات السلفية القديمة منها أو الحديثة.

ت ــ ان الفلسفة وقضايا الفكر المجرد أسبق في الاعتبار والأهمية من العلم، وهي التي يجب أن ترود الطريق له، واذا افتقد « العلم » التوجيه الفلسفي أو المعنوي ــ الفكري (الديني عمليا) فانه يزيغ ويفسد، وعندئذ فيجب أن تولى قضايا الفكر والروح من العناية ما تستحق وما تستطيع به قيادة بقية المعارف والعلوم.

وفي غير هذا فهو يدعو الى استعمال (العقل) واعتماده حكما وحاكما والى ضرورة مناقشة أصول العقيدة ويناقش هو نفسه على طريقة الأشاعرة مشكلة الحرية والارادة (المشيئة) ويورد البرهان الارسطي على وجود الله، ويطرح مسائل التأويل والتفويض في أمور الدين، مما يتفق فيه مع غيره من الذين سبقوه على نفس الدرب وبنفس الاختيار : السلفي.

ان الخلاصة الأساسية من كل ما سبق، هو ما لاحظناه دائما من تركيز صاحبنا، وغيره، على التاريخ موضوعا ومنهجا، فما هي دلالة ذلك يا ترى ؟

بشكل عام يمكن القول ان الاهتمام بالتاريخ سواء كموضوع وكعلم يحصل غالبا بالنسبة لمختلف الشعوب القومية في مراحل التقهقر أو المراحل الانتقالية. وهي في الحالتين تعود الى الماضي وماضيها بالذات المتصور والمقروء قراءة خاصة وملائمة لحالتها الخاصة كذلك.. لتتحصّن فيه وتحافظ.. وتعيد انتاج تلك المحافظة على الكيان أمام خطر خارجي ثقافي خصوصا، وهي كذلك تفعل هذا من أجل أن تسترجع ثقتها بنفسها، وتنتقي من تراثها وسائل تساعدها على تحقيق نهضتها ومن هنا نجد أن الباعث، أو الظرف العام الذي كان المغرب يحياه في الفترة الاستعمارية، لم يدفع المختار وحده إلى أخذ هذا الطريق، بل لقد لاحظنا أن الكتابة التاريخية كانت شبه عامة، ليس في المغرب وحسب، بل في مجمل الشمال الافريقي والوطن العربي عموما.

والى جانب هذا الباعث العام، هنالك سبب خاص بالكاتب ينسجم ويتداخل مع العامل الموضوعي السابق، ذلك هو الفشل أو العجز الذاتي للمختار في ميدان العمل السياسي، وليس فشل الأمة فحسب، سواء في المرحلة القديمة للاستعمار أو في مرحلته الجديدة منذ أواسط الخمسينيات، فلم يقبل المختار كلتا الوضعيتين غير أنه بقي عاجزا عن إحداث أي تغيير فعلي فيهما، هذا الاخفاق سيدفع بصاحبنا من جهته الى « الهروب » والاحتماء بالعمل « الأكاديمي » في مجال التاريخ خصوصا، مادام تراثه الثقافي الخاص والشخصي من جهة، وحاجيات وطنه من جهة أخرى يلحان عليه في ملء هذا الفراغ.

وفي الموقف الخاص للاستعمار الفرنسي من حضارة وثقافة وتاريخ الشعب المغربي هنالك دافع آخر، هكذا فقد اضطر الاستعمار من أجل تبرير استغلاله على جميع المستويات وفي كل الأمكنة الى أن ينشر شعورا شائها وقبيحا عن تواريخ وثقافات الشعوب التي اصطليت بناره فهي قد كانت قبل دخوله منحطة وبدائية بل وهمجية وغير ذلك من الكتابات الزائفة التي ستضطر الحركات الوطنية لمختلف الشعوب المستعمرة حينئذ الى الاهتمام بالرد عليها ودحضها سواء مباشرة بالنقد أو بصورة غير مباشرة عن طريق كتابة تواريخ مضادة ووطنية لتلك التواريخ الاستعمارية ومن هذا القبيل وفي نفس الاطار يصح ويجب ادراج أعمال الأستاذ المختار، هكذا فإنه بالنسبة للمختار أو لأمثاله من المثقفين والكتاب الوطنيين يومها لم يثبتوا وجود تاريخ وتاريخ عريق لهذه الأمة وحسب، بل ابرزوا وجود تواريخ زاخرة وغنية حتى لأقاليم الوطن الواحد مهما صغرت أو نأت مؤكدين في نفس الوقت على وحدة العناصر المكونة للشعب المغربي في الحاضر وفي الماضي على جميع المستويات (عرقيا ــ تاريخيا... الخ) وكذا على الطابع العروبي ــ الاسلامي الذي انجز من خلال ذلك التاريخ وبواسطته. فطبع البلاد العربية بصورة نهائية بطابعه. ويسجل للأستاذ المختار أنه كان المبرز من بين بقية المثقفين ــ الكتاب المعاصرين له في هذا الميدان بالذات، فضحى بالكثير وبذل كل شيء ثمين حتى حياته من أجل انجاز هذه المهمة الوطنية وهذا الهدف النبيل وبكل ذلك ترك لنا ثروة تاريخية لا تجارى قبل أن يودع وطنه وشعبه رضيا مرضياً.

رابعاً : خلاصات عامة عن (الحركة السلفية)

ـ السلفية في المجتمع والتاريخ :

1 ـ لم تكن اطروحات وقضايا ما أصبح يتعارف عليه باسم « الحركة السلفية » منذ أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن، أول مظهر من مظاهر وجود هذا النمط من التفكير في تاريخ الفكر العربي ـ الاسلامي. بل أنه يمكن القول إن هذا الفكر عاش مثل هذه اللحظة منذ العصر العباسي أولا ثم في ما يسمى بالقرون الوسطى ثانيا ثم القرن الثامن عشر في الشرق الأدنى خصوصا (الهند وايران). فالتأريخ الحقيقي إذن لحركة تستهدف تجديد المجتمع من خلال تجديد فكره الديني وسلوكه.. يجب أن يرجع القهقرى الى ما قبل القرن التاسع عشر(19).

2 ـ إن أهم مميزات هذا التاريخ، ظاهرة تطوره العكسي، حيث كلما تقدمنا معه في الزمن لاحظنا تأخره على صعيد المبادىء والأفكار والمواقف. إن جذرية أوائل مفكري الاسلام.. النظرية (المعتزلة مثلا) نفتقدها في المراحل اللاحقة عليهم، ومواقف وآراء أمثال الشاطبي أو ابن خلدون مثلا متقدمة جدا بالمقارنة إلى سلفية القرن التاسع عشر، وأوائل هذا القرن. أما « سلفية » اليوم فهي لا تقاس في هزالها ورجعيتها.

3 ـ ومن أهم الفروق، في المضمون التاريخي، بين تجربة الماضي في تجديد وتطوير الفكر الديني وتجربة العصر الحديث، اهتمام أولئك وجرأتهم على طرح مسألة تطوير العقيدة الدينية نفسها وتجديدها، وكذا على المس احيانا بالعبادات نفسها. أما هؤلاء «المجددو» فقد أحجموا نهائيا، وبحبن، عن هذين الركنين الاساسيين في الاسلام وفي كل دين، مكتفين بـ «الاجتهاد» فقط على مستوى التشريع، والاقتصار على مستوى الوعظ والارشاد فيما يخص السلوك والمعاملات...

4 ـ إن السلفية الحديثة لا تعتبر متجانسة إذا نحن راعينا اختلاف مراحل تطورها الزمني، واختلاف مواطنها، وتنوع أشخاص قادتها الناطقين باسمها. وفي هذا المعنى قد نجد اختلافات تصل حدود التناقض أحيانا، ليس بين شخصين منها فحسب... بل بين مواقف وآراء الشخص ذاته في مرحلتين مختلفتين من تاريخه النظري وتاريخ ممارسته. غير أن القضايا والاشكالات الرئيسية التي استقطبت مختلف الاهتمامات والأشخاص، تبقى مع ذلك متشابهة إن لم نقل متحدة.

5 ـ على صعيد الفروق في المكان، يمكننا عموما أن نميز بين سلفية المشرق ككل وسلفية أختها أو ربيبتها في المغرب. وإنه لمما يلاحظ بسرعة على مستوى الاختلاف بينهما ذلك الفقر النظري المذقع الذي مَيز الحركة السلفية في المغرب في مقابل غنى وزخم تجربتها وممارساتها الاجتماعية ـ السياسية العملية، قياسا الى سلفية المشرق التي مثلت العكس تقريبا غنى نظري وتخلف على صعيد الفعل والممارسة العملية وواضح دور التاريخ القديم والحديث في بروز هذه الظاهرة.

6 ــ باعتبار أن كل حركة فكرية هي انعكاس، على الصعيد النظري، لمصالح مادية في المجتمع، فإنه يمكن القول بأن الحركة السلفية عموما تمثل بالنسبة لظروفها التاريخية، التعبير النظري، والإرادة السياسية لطبقة اجتماعية وطنية (البورجوازية التقليدية أساسا..) بدأت تفقد تدريجيا مواقعها الاقتصادية ــ الاجتماعية... الخ القديمة، فعمدت، أمام قوة الهجوم الاستعماري : الاقتصادي ــ التقني... الى محاولة تكييف شروطها الخاصة مع شروطه. ولكن في الحدود التي تستطيع فيها أن تحافظ على الأساسي من مصالحها وعلى نوع من الاستقلال عنه. وبما أن ذلك التطور ــ الاكتساح كان سريعا : وكان يؤدي بنفس السرعة الى اضمحلال (الطبقة) واصطناع أخرى بديلة عنها (كمبرادور). فقد قامت تلك بمعارضة ذلك التطور ــ التقهقر (مسألة نسبية) ومحاولة لجمه وتعطيله الى حدود إمكانياتها الخاصة واستعدادها لمسايرته، وجوهر كل الفكر السلفي واشكاليته الرئيسية، يكمن في هذا.

7 ــ الحكم التقويمي على الحركة السلفية عموما، يمكن أن يستمد من منطقها ومنطلقاتها نفسها. ولا يمكن الا أن يكون سالبا باعتبار فشلها عند الممارسة والتطبيق، إذ « العبرة بالنتائج » وهي لم تقم وتبرر وجودها إلا من أجل ذلك، مادام الجانب النظري على كل حال يعتبر بالنسبة إليها محلولا سلفا من طرف الله (القرآن) أو من طرف رسوله وخلفاء رسوله الصالحين (السنة) فلا فضل لها إذا في هذا الجانب، وكل مشكلها يوجد على مستوى التطبيق فقط. إن فشلها الذريع على صعيد الممارسة الفعلية (النتائج) هو أفضل تقويم لها وحكم عليها.

ب ــ حول القـادة :

1 ــ يلاحظ أن أغلب القادة السلفيين، يرجعون بحسب أصولهم الاجتماعية الى فئات أرستقراطية بدوية أو مدنية. هذه الفئات كانت تعيش عموما، وعلى المستوى العربي، حرقة العز المضام والمجد المكلوم، ولكن الذي لا سبيل إلى استرجاعه في الواقع العيني فكبتت غيضها وحنقها على « الواقع » وأورثته تنشئة وتربية أبناءها وانعكس على مسلكيات وتفكير هؤلاء الآخرين بشكل طاقة روحية هائلة للتذمر والرفض، ومحاولة استرجاع ذلك الماضي المندثر. أو المعرض لذلك ــ العائلي في جانبه الذاتي، والقومي ــ الحضاري والديني ــ في انعكاسه على مستوى الوعي والتعبير عنه.

2 ــ إن الكثير جدا من عناصر تلك القيادات، نزح أصلا إلى المدينة من مناطق بدوية للسكن ثم الدراسة، أو العكس، وبهذا نلاحظ في كثير من جوانب تفكيرهم وسلوكهم مظاهر من تقاليد وانماط تفكير وسلوك المجتمعات الزراعية. وبهذا المعنى، فكأن السلفية في أحد جوانبها الهامة، تعبير عن ارادة وفعل البادية لملاحقة « تقدم » وتطور المدن من ظل الهيمنة، المباشرة أو غير المباشرة، للرأسمال الاستعماري الأجنبي، ورغبتها في أن « يسير الهوينى » حتى نتمكن من اللحاق به و« المساواة » معه.

3 ــ إن التكوين الثقافي لأولئك، كان في مجمله تقليديا تراثيا اسلاميا، بواسطة اللغة العربية الفصحى أساسا، ونادرا ما نجد حالة التكوين الثقافي المزدوج وبالأحرى العصري الصرف لدى أحد من السلفيين. وعلى هذا فقد كانوا في حقيقتهم وواقعهم، المدافعين عن

مصالح الفصيحة وثقافتها والمجتمع أو المجتمعات التي عبرت وتعبر عنها، أكثر مما كانوا يعكسون مصالح فردية طامحة وأخرى مصالح مستقبلية لفئات اجتماعية ناشئة ومتطلعة لآفاق التغيير وللمستقبل.

4 ــ وبالنسبة اليهم جميعا، فقد تميزوا، ثقافيا، بموسوعيتهم وغنى معارفهم في كل الميادين والمستويات. وهم في هذا يذكروننا باقطاب تاريخ الفكر العربي بل والانساني في هذا الجانب منه. غير أن الباعث هنا ليس حاجة معرفية ــ علمية، بل أساسا حاجات اجتماعية ــ سياسية، اقتضاها « زمن » تميز بتداخل للازمنة فيه وبالتالي لتداخل في « الثقافات »، واقتضاها كذلك ضرورات الجدال والصراع ضد أنواع متعددة من التناقضات وأنواع من الخصوم.

5 ــ إن الأكثرية الساحقة منهم، لم تكتف بممارسة الحياة في مواطنها الأصلية أو عموما أوطانها القومية، بل إنهم عرضوا انفسهم لـ « هجرات » وتجارب خارج الأوطان، سواء أكان ذلك بصفة اختيارية أو بصفة اضطرارية... والنتيجة كانت دائما واحدة : غنى في الخبرة والتجربة، ناتج عن غنى في الاحتكاك بتجارب الشعوب وخصوصياتها المختلفة، وما يولده ذلك من تكوين : التفكير عن طريق (المقارنة) وبالتالي انبعاث الحس النقدي والفكر التحليلي (النسبي دائما) لمختلف الظواهر... التي كانت تؤخذ قبلا باعتبار ما هي عليه فقط...

6 ــ ومن حيث ممارستهم العملية، يلاحظ أن أكثريتهم الساحقة، وخصوصا في المشرق، كانوا مرتبطين (كليا أو جزئيا / دائما أو مؤقتا / عن رغبة أو عن رهبة..) بجهاز الدولة الحاكم، سواء أكان « وطنيا » أو أجنبيا استعماريا، وقد يقتصر هذا الارتباط بالسلطة الحاكمة، على محض علاقات « انسانية » ولا يصل مستوى التداخل والاندماج الوظيفي. وهذه الظاهرة الشاملة تقريبا، تعني الكثير في مجال توضيح الحقيقة الاجتماعية ــ الفكرية والسياسية عن الحركة السلفية الحديثة.

ت ــ قضايا الفكر السلفي :

عموما، اشتركت الحركة السلفية الحديثة، بالرغم من تنوع اقطابها ومن اختلاف مراحلها، في العناية والاهتمام بنفس القضايا والاشكالات تقريبا، مقدمة في نفس الوقت حلولا متقاربة ومن أهم ذلك :

1 ــ الرجوع والاهتمام، عموما، **بالماضي التاريخي**، الفكري والحضاري، للأمة وللملة (العربية ــ الإسلامية). ولكنها لم تعد الى ذلك الماضي على اطلاقه أو بطريقة موضوعية... بل انها انتقت منه صوره المضيئة ولحظاته البارزة، وحتى الاستثنائية، مما ينسجم مع مطامحها السياسية الخاصة، ويلائم **رغباتها** الذاتية. فحوّرت من ثم، التاريخ العربي ــ الاسلامي، وفصلته طبق مقياس يصلح **لامكانيتها** واستعداداتها الخاصة إنه (**الماضي**) بالأحرى ايديولوجيتها في الحاضر، متلبسة (مقنعة) ومنصبة على ماضر معين ومنتقى بعناية وحسب الطلب.

2 ــ ادعت جميعا، ودعت الى (**العقل**) **بمفهومها** الخاص له، واستعملته أداتها في فهم الدين، ومقياسها الخاص لقراءته وتأويله، وكذا لتقويم التراث العربي ــ الاسلامي عموما، مع

إعادة تنظيمه وتشكيله... بل وعصرنته في اللهجة وطريقة العرض أكثر مما في المحتوى و(الجوهر). لم يكن إيمانها واستعمالها لـ (العقل) إذا سوى لغة أخرى لـ (الايديولوجية) التي كانتها، إذ لا يوجد طبعا عقل محض أو عقل في المطلق.

3 ــ فرقت بشكل تعسفي، وعلى الصعيد المنهجي بين جانبين في الدين (الاسلامي طبعا): الدين النظري ــ المثالي المتضمن في النصوص (القرآن ــ السنة) أو المجرد عن لحظات تطبيق نموذجية (السلف الصالح) من جهة والدين الممارس في الواقع (في التاريخ) أو في الحاضر من جهة أخرى، فقبلت بل وارتكزت الى مقومات وعناصر الدين الأول (الأصلي)، مطرحة ورافضة مظاهر تطبيقه (في الواقع والتاريخ) معتبرة إياها فاسدة ومنحرفة... طارحة على نفسها مهمة، دينية وتاريخية ــ هي إعادة تطبيقه بشكل صحيح لمطابقة العقيدة بالشريعة، المثالي بالواقعي الأزلي بالتاريخي، السماوي بالأرضي والالاهي بالانساني، ذلك الهدف الذي لم يسبق له أن تحقق الا في لحظات قصار في التاريخ، ولكنه الهدف الاسمى لكل الانسانية في كل تاريخها.

4 ــ عملت دائما على تحديد موقفها الخاص وميزاتها مقارنة الى بعدين أساسيين : بعد الماضي العربي ــ الاسلامي بالذات، والمنتقى منه لحظاته المختارة و« السعيدة »، وبعد الحاضر الغربي أساسا المختار منه هو الآخر، وبعناية خاصة، لحظاته « الشقية » غالبا.

5 ــ لم تقتصر غالبا، على الموروث الديني كما هو لدى السلف.. بل عملت على العكس على محاولة تطويره كذلك، في الحدود التي يحافظ فيها طبعا على ما هو أساسي، مع تغيير بعض المظاهر والعناصر حتى تتلاءم و« مقتضيات العصر »، هذ الصنيع لا يسمح فعلا بتصنيفها ضمن الايديولوجيات « المحافظة » أو الرجعية، ولكنه في نفس الوقت لا يسمح بتوصيفها ضمن التجديد والثورة، إنها بالأحرى ايديولوجية انتقائية وتلفيقية (لا كتعبير بل كصفة).

6 ــ وقد عملت على تحقيق ذلك الهدف « العصرنة » أساساً عن طريق نوع من التوفيق بين الدين من جهة والعلم العصري (والتكنولوجيا) المستورد من الغرب من جهة ثانية. وهي تعمد الى استعمال (العقل) ــ النفعي ــ غالبا عندما يقع تعارض ما ظاهريا، ومن أجل تحقيق الملاءمة.

7 ــ عملت جميعا على تجاوز الخلافات الدينية القديمة العقائدية منها (شيعة ــ سنة ــ معتزلة ــ خوارج..الخ) أو التشريعية فقط بين المذاهب الأساسية الأربعة (مالك ــ الشافعي..) مكتفية بالاعتماد بشكل رئيسي على النص القرآني والسنة الصحيحة. مع فتح باب الاجتهاد من جديد اعتمادا على العقل أو المصلحة العامة. ومستعملة طريقة (التلفيق) بين مختلف المذاهب الفقهية.

8 ــ حاولت، عموما، وفي المشرق خصوصا، أن تقف من الحياة السياسية موقفا « محايداً » ومن السلطة موقفاً مهادناً ومسالما حتى ولو كانت سلطة أجنبية واستعمارية (!؟) موجهة جُلّ اهتمامها نحو اصلاح ما اعتبرته تناقضها الرئيسي، وهو : أفكار الناس ومعتقداتهم وسلوكهم وعلاقاتهم الاجتماعية، فاتجهت نحو الأفراد كأفراد، ونحو العلاقات الاجتماعية في صورها واشكالها الدنيا (الأسرة أساسا).

9 ــ وحاولت الى جانب ذلك أن تكون لها نظرة أو رؤية ذات طابع شمولي، فكل القادة السلفيين تقريبا شملوا بنظراتهم : مواقفهم من الكون ومن الحياة ومن الفكر والانسان والمجتمع... الخ. وقد كان هذا الصنيع منها في الحقيقة نوعا من الهروب والتعويض، على المستوى الايديولوجي، عن وضعية القهر التي كانت تطوقها من جهة، ومن جهة ثانية عن فقرها على صعيد مذخراتها في البرنامج السياسي عما ترفضه : اقتصاديا ــ اجتماعيا...الخ.

10 ــ وعلى الصعيد العملي اتجهت جميعا الى مناحي متقاربة، فهي قد حاربت بدرجة أو بأخرى، الفكر الخرافي والشعوذات الدينية (الدخيلة) على الثقافة والتقاليد الاسلامية، وعملت على تفتيت المؤسسات والتنظيمات الدينية المشتتة للأمة والمنحرفة على العقيدة الصحيحة (الزوايا والطرق)، وهي في الغالب كذلك اتخذت موقفا مناوئاً من التنظيمات السياسية (الحزبية) لشعوبها. وكذلك فقد عملت جميعا على نشر التعليم، وتطوير العربية واشاعتها واصلاح بعض المؤسسات الاجتماعية المتصلة بالدين (الخيريات مثلا).

11 ــ وحول الموقف من وحدة الأمة انطلاقا من البعد : الديني أو القومي أو الجغرافي..الخ تميزت آراؤها بنوع من الخلط والتداخل والمراوحة بين مختلف المواقف. وهكذا فقد كان مفهومها للوحدة العربية، يندمج ويتلبس بمفهومها عن الجامعة الاسلامية أو للوحدة الجغرافية على صعيد (الشرق) المضطهد كله. ولم تستطع التخلص من هذه الفوضى النظرية حتى أواخر عهدها في مرحلتها السابقة.

12 ــ أما بالنسبة للموقف من (الغرب)، فقد وقفت ونظّرت عموما لنظرية مناوئة تجاههُ ولعنصرية مضادة له. ولم تعمل، بصورة كافية على الانتباه الى تناقضاته الداخلية، والتفريق بين وجهيه : الرأسمالي ــ الاستعماري والرجعي من جانب والشعبي التقدمي من الجانب الآخر، إن الغرب يسمي في منظورها مفهوما ميتافيزيقيا خارج التاريخ وخارج الجغرافية، وقد خسرت نتيجة هذه الرؤية وهذا الموقف الكثير من الفوائد والمكاسب التي كان يمكنها الحصول عليها سياسيا (وغيره) لو اتخذت منه موقفاً موضوعيا.

13 ــ وحول الموقف من الدولة وطبيعتها ونوعها... حاربت المفهوم العصري لها.. اللائكية. ولم تر امكانية في الدين الاسلامي للتفريق بين ما يتصل منه بالعبادات والاخلاقيات... وما يتصل بتنظيم المجتمع، فكلا الوجهين في نظرها مرتبط بالآخر، وكل اصلاح للمعتقدات أو للأخلاق إلا ويجب أن يرتبط بالاصلاح السياسي.

ث ــ نقد السلفيــة :

إن هذه الحركة التي تميزت بكونها ذات طابع فكري أساسا، واجتماعي ــ سياسي بشكل ثانوي، تعتبر ظاهرة تاريخية من أهم ظواهر التاريخ الحديث للأمة العربية، وبصفتها هذه فهي تقبل، بل وتحتاج للخضوع لنفس ما تخضع له الظواهر المماثلة (التاريخية) من نقد يكشف دلالاتها (الفكرية ــ الاجتماعية...) ومصادر عجزها ومواطن عيوبها ونقط ضعفها وأخطائها.. ويمكن اجمال كل ذلك خلال نقدات في شكل نقط مدرجة دون ترتيب من حيث الأهمية :

ث / 1 على صعيد النظرية : اتسمت بعدة اخطاء مبدئية أو منهجية ومن ذلك :

1 ــ النزعة الايديولوجية بالمعنى السلبي للمصطلح، أي أن وعيها كان منفصلا ومفارقاً للواقع، فلم تكن الحقائق بالنسبة اليها صادرة عما يحيط بها من (وقائع) موضوعية.. بل عن النوايا والرغائب أو عن فكر مسبق مستمد من ماضي لم تعد دواعيه حاضرة، في الزمان، أو عن حاضر بعيد عن وقائع السلفيين في المكان (الغرب)، لقد كانوا يفكرون طبق مقولات ونماذج منتقاة ومختارة بشكل يحقق انسجامها الداخلي بالأساس وبغض النظر عن انسجامها الخارجي مع (الواقع)، وقد كان هذا من أهم مصادر اخفاقها عند كل ممارسة عملية، رغم بعض نجاحاتها على مستوى بناء (النظرية).

2 ــ البعد المثالي للفكر : وذلك بتقديمه على الواقع المادي وتفسير الثاني بالأول والاكتفاء بصدور الفكر عن الفكر دونما وسيط مادي، ودون قياسهما الى المحيط الخارجي الواقعي وككل مثالية غرقت السلفية عموما في عالم الأفكار تولد بعضها هي بعض ظانة بذلك أنها ستغير واقعا لم تكتشفه ولم تهتم عمليا بتغييره.

3 ــ الانتقائية والتلفيق، لقد كانت المنظومة الفكرية الشاسعة التي عملوا جميعهم على بنائها كل من جانبه... غير متجانسة ولا حتى منسجمة أو متقاربة من حيث منطلقاتها وطبيعة عناصرها الأساسية المكونة. فعلى المستوى الديني، العقائدي أو التشريعي... نفسه، اضطروا الى الدمج بين متنافرات ومتناقضات أخذت من كل مصدر سمح لهم بذلك، فمن الاعتزال أخذوا شيئا ومن السنة بمختلف تياراتها ومنابعها في العقيدة (الكلام ــ التصوف...) أو التشريع (المذاهب الفقهية..) وحتى من الظاهرية (ابن حزم) أخذوا أشياءا. ولم يتركوا ما يمكن أن يمدهم به الفكر الفلسفي والاجتماعي الاسلامي الموروث (ابن سينا ــ ابن طفيل ــ ابن رشد ــ ابن خلدون والرازي...) واضافوا الى كل ذلك التيارات الفلسفية والفكرية في الغرب الحديث أو المعاصر لهم. ابتداءا من الطبيعية التطورية (داروين، سبنسر) الى الوضعية (كونت) الى الذرائعية النفعية (ستيوارت ميل) الى تيارات الفكر السياسي ــ الاجتماعي الليبرالي (مونتسيكو ــ روسو) أو علم الاجتماع الوضعي (دوركهايم) ...الخ.

إن هذا التلفيق الذي سمح لهم بالفعل بصنع بناء نظري متكامل في مظهره الشكلي... لم يسمح لذلك البناء نفسه بأن يكون متكاملا ولا متينا ومتماسكا في مضمونه. لقد كان قابلا في أية لحظة لكي يهتز وينهار أمام أبسط دفعة خارجية، وكذلك كان. فحالما وقع إقحامهُ وتجريبه في الواقع العملي، أظهر عجزه الذاتي عن تحقيق أي نفع عملي في مضمار الاكتشاف والمعرفة، وأحرى في مضمار المواجهة للواقع المضاد و(الفاسد). إن بواعث وأسباب الانهيار كانت تكمن داخله بالذات، في متناقضاته ومتعارضاته التي لا تقبل التعايش.

4 ــ الدفاعية : ومن حيث المواقف وطبيعتها عموما، اتخذت الحركة السلفية في الغالب وضعية المدافع الذي يكتفي، وبصورة دائمة، برد الفعل فقط. فكانت كل قضاياها واشكالاتها الفكرية والتاريخية... عبارة على ردود أفعال أمام أقوال وتحديات الآخرين (أوربا دائما) ولم تحاول يوما تجاوز ذلك نحو القيام بالفعل المحض المبادر والحر... وكنتيجة منطقية لكل تابع على مستوى الفعل.. فقد تميزت بكونها لم تكن تختار هي نفسها ميدان الصراع ولا موضوع المعركة.. بل إن الخصم هو الذي كان يبادر الى اختيارهما. فتضطر هي من ثم الى

حوضه في ميدانه هو وضمن وطبق قوانينه الخاصة. فاتسمت لغتها ولهجتها بالجدال العقيم وبمنطق تبريري غالبا. ولم تصل يوما مستوى انجاز وتحقيق نقاش وحوار حقيقيين ومنتجين مع الخصم أو مع غيره بل وحتى مع نفسها. وهي كذلك لم تتح لتفكيرها يوما استعمال المنطق العملي الذي يبحث عن الاسباب ويستقرىء الظواهر ويكتشف القانون... الخ من أجل تغيير الواقع وليس من أجل تبريره أو الدفاع عنه. وبهذا السبب كانوا دائماً يتحدثون بلغتين لنفس المضمون : لغة دفاعية تبريرية عندما يكون المخاطب أو المعني هو (الغرب) ولغة أخرى وعظية وإرشادية لمواطنيهم (أو رعاياهم الفكريين). وفي كلتا الحالتين لم يتجاوزوا حدود الدفاع عن واقع (أو وقائع) كان يحتاج بالأحرى الى نقد ورفض وتغيير شامل وجذري.

5 ــ اللاتاريخية : وفي رؤيتهم للتاريخ، سواء الماضي الاسلامي منه، أو الحاضر الغربي، نزعوا نزعة ميتافيزيقية (لاتاريخية) تلغي عامل الزمن وتغض النظر عن مفاهيم : التطور والتقدم، وتصير وقائع التاريخ انعكاسات لعالم الأفكار والأرواح القدري المسبق والالاهي. ان التاريخ بهذا الاعتبار يوجد مكتوبا قبل أن يصنع، وكل شيء فيه مبرر من خارجه سلفاً... وحينئذ يقعون عمليا في موقع (التسليم) الذي يتناقض مع نواياهم الخاصة نفسها. انهم لا تاريخيون (أو لاتاريخانيون) سواء بالنسبة لرؤيتهم لماضي حضارة شعوبهم الذي يفسر انحطاطه بعوامل خارجة عنه، أو بالنسبة لموقفهم من تاريخ (الغرب) الذي يفسر (تقدمه) بنفس الطريقة.

6 ــ الوثوقية : وتلك من أهم صفات معتقداتهم رغم كل ادعاءاتهم بالعكس، ذلك أن أساسيات تفكيرهم ومبادىء منهجهم الديني.. هي بالنسبة اليهم مسبقات (أو قبليات أولية للتفكير) تكتسب مصداقيتهامن ذاتها ومن مصدرها الروحي (الدين، الله..) لا من (الوقائع) المادية « العارضة » (!؟). ويُمثل ذلك لديهم المصدر الأساسي لثقتهم الدوجماطيقية في افكارهم ومواقفهم. وبالطبع فان هذا قد أدى ويؤدى بهم مع تطور الزمن الى مزيد ابتعاد نمط تفكيرهم وأفكارهم عن المحيط الذي ينوون (إصلاحه)، وهذا هو السبب الذي لم يدفع، مثلا، بأحد منهم الى ممارسة حقيقية لنقد ذاتي للممارسات وللأفكار نفسها، (رغم تراكمات الأخطاء وتراكم الاخفاقات) هذا النقد الذاتي الذي يعتبر ضروريا وحيويا لكل فكر (أو ممارسة) يريد أن يحيا ويستمر في الحياة، بل أن يُحيي ويبعث الحياة من حواليه.

7 ــ وأخيرا، وعلى المستوى المنهجي، فقد سقطوا في أخطاء كبيرة، ومن ذلك أن وسائل تفكيرهم وميادين نقاشهم اتسمت عموما بطابع **التجريدات الذهنية** والمفاهيم المطلقة والعامة، غير الدقيقة من مدلولها، البعيدة عن الواقع الملموس بعدا كبيرا. وهكذا فقد استخدموا بطريقة غامضة وفضفاضة مصطلحات من مثل : (العقل) (الحرية) (المصلحة).... الخ وكذلك فقد ركزوا على بعض القضايا أو الظواهر الجزئية مع تضخيمها أو تعميم نتائجها على الكل (الاخلاق مثلا). ومن نفس القبيل تفريقاتهم التعسفية لما لا يمكن التفريق فيه، بين التقنية الغربية، مثلا، ومضمونها الفلسفي والاجتماعي... معتقدين انها في موطنها الأصلي (الغرب) أتت معزولة عن حركة تطوره التاريخي الاجتماعي والثقافي، فيحق اذاً استيرادها دون مراعاة خلفياتها الفكرية...

إن هذه الأخطاء المنهجية، في أصول وطرق التفكير.. والناتجة طبعا عن منطلقاتها الذاتية

والمثالية، لم تساعد الحركة السلفية على رؤية الواقع كما هو ولا على اكتشاف تناقضاته الحقيقية وقوانينه الذاتية الخاصة، وبدل أن تكون وسائل ومناهج الفكر والتفكير أدوات للاضاءة والتوضيح أمست لديها على العكس أدوات لتضبيبه وتشويشه عن الرؤية الصحيحة... فانتهت الى أن غيَّرها (الواقع) نحو مواقع اكثر رجعية ويوماً عن يوم، بدلا من أن تغيره هي وتصلحه نحو الأحسن والأفضل ولصالح الانسان ــ المواطن المستغل والمقهور والذي لم يكن في (وعيها) أو (لاوعيها) حقيقة. بل الذي كان هو السلطة (السياسية والاقتصادية...) وطموحها الى اقتسامها مع مالكيها ومحتكريها.

ث/2 على صعيد العمل :

اذا كانت كل ممارسة عملية، هي في آخر التحليل، انعكاسٌ لخلفية فكرية ونظرية، تتأثر بها ايجابا أو سلبا، فانه لايمكن أن ننتظر من تلك المقدمات المذكورة، الا نتائج على نفس المستوى، ومطبوعة بنفس الطابع، ومن سمات تلك الأعمال والممارسات :

1 ــ النزعة الوعظية والارشادية : والتي تنطلق ضمنيا من مقدمات نظرية ترى الى المشكل (أو المشاكل) باعتباره من طبيعة أخلاقية وبالتالي فردية (شخصية) تهم المفاهيم والمسلكيات النفسية ــ الفردية اكثر مما تهم الأوضاع والعلاقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية... في المجتمع المعني. وهم لذلك بدل أن ينظموا الناس ويقودوا حركتهم، في إطار برنامج سياسي عام لتغيير أفرادهم وأشخاصهم (فكريا واخلاقيا...الخ) من خلال ممارستهم همْ بالذات لتغيير واقعهم وأوضاعهم وعلاقاتهم... اكتفوا (بتجميعهم) لاسداء النصح والقاء المواعظ الدينية والاجتماعية والأخلاقية.. عليهم.

2 ــ تحديد التناقضات : وهم كذلك لم يحددوا أو يميزوا بدقة طبيعة موقع التناقض الرئيسي من التناقضات الثانوية في مرحلتهم. ففي ظروف الاستعمار المباشر حيث المشكل السياسي (الاستقلال ــ السيادة الوطنية...) هو الرئيسي، والذي تصطلي من ناره جماهير الشعب... توجهوا هم بالعكس الى القضايا والتناقضات الثانوية في تلك المرحلة، الى المشاكل الاجتماعية والى المشكلة الثقافية (الدين ــ اللغة ــ الأخلاق أساساً) تاركين بذلك عمليا للاستعمار المجال حراً لتحركه الإستغلالي ولاضطهاده السياسي دون مُواجه. بل وانتهوا، موضوعيا، الى أن يكونوا المساعدين غير المباشرين لترسيخ كيانه خلال تلك المرحلة.

3 ــ التقية : وعلى نمط أسلوب وسلوك « الفقهاء » في التاريخ العربي ــ الاسلامي. ساروا هم كذلك في اقتفاء أثرهم في (التقية) أي أن يظهروا غير ما يبطنون بل ونقيض ما يبطنون أحيانا، ولم ينتهوا الى أن التاريخ لا تفعل فيه ولا تصنعه النوايا مهما كانت (طيبة) بل الممارسة الفعلية المتجانسة، هذه الممارسة التي لم تكن لديهم تناقض (جذريا) مع الواقع. أما النوايا فهي تبقى دائما (نوايا) ولا شيء آخر. وفي علاقتهم مع الشعب لم يسلموا دائماً من اتهامهم لذلك ب (النفاق) والمخاتلة. أو على الأقل سببوا له ارتباكا وحيرة عند ارادته تصنيفهم في صفه أو ضداً عليه، وفي صف الحلفاء للعدو الغاصب. وأما في علاقتهم ب (السلطة) فانه لم يكن، ولا يمكن أن يكون، من عادة أي سلطة أن تهتم بما يُبطنه الأفراد لها قدر اهتمامها بما يتخذونه من مواقف عملية معها أو ضداً عليها.

4 ــ « الاصلاحية » : وفي الوقت الذي لم يكن فيه الواقع قابلا، بالنظر لتفسخه وانحلاله العام، الى أي إصلاح، نزعوا هم نزعة « إصلاحية » عوض الأسلوب والخط الوحيد الذي كان مطلوبا ومحتما الا وهو : الثورة. وكما هو الحال بالنسبة لكل ايديولوجية إصلاحية، فقد انتهوا جميعا بالتقريب وفي الأخير الى نوع من المصالحة مع الواقع بدل اصلاحه الذي كان مستحيلا عمليا.

5 ــ أخطاء في التكتيك : وعلى هذا المستوى نلاحظ سقوط الحركة في أخطاء تكتيكية قاتلة. وهكذا، مثلا، نجدهم قد اضطروا، وانطلاقا من نزعتهم الذرائعية المبتذلة، إلى عقد تحالفات لا مبدئية ــ (انتهازية) أضرت بهم وبمستقبل مطامحهم كثيرا، خصوصا حين وصلت الى حد التعاون (وعلى الأقل المهادنة) مع حركة فكرية وسياسية تتناقض جذريا مع أكثر مبادئهم وأفكارهم أولية. ألا وهي الحركة النازية (والفاشية). هذا دون الحديث عن أنواع أخرى أدنى من التحالفات.

وفي نفس السياق، وكوجه مقابل للصورة السابقة لم يعملوا على اكتشاف ومن ثم استغلال التناقضات الداخلية للبلدان الاستعمارية، وعقد التحالفات مع الاطراف التي يعتبر استقلال الشرق وتقدمه في مصلحتها. (الطبقة العاملة الاروبية مثلا)، وما أنجز في هذا الصدد كان على العموم قاصراً ودون برنامج، وتطغى عليه الظرفية المؤقتة (بدون استراتيجية).

6 ــ وضمن «خطهم السياسي» المفترض. نلمس ظواهر متعددة لنزعات تعتبر في عمقها (بورجوازية صغيرة) كان قد حكم عليها في موطنها الأصلي (أوربا) بالفشل الذريع بالنظر لفساد منطلقاتها النظرية. ومن ذلك عند البعض، نوع من الفوضوية والدعوات الاجتماعية ذات المضمون والمنحى الاشتراكي الطوباوي الذي يحول المشكل الاقتصادي من طبيعته الموضوعية والكامنة في العلاقات الانتاجية بين الناس.. الى طبيعة ذاتية يمسي فيه المشكل الاقتصادي مشكلا أخلاقيا.. كامنا في فساد الأفراد والأشخاص كأشخاص. (السيكولوجية).

وأخطر تلك الميول كانت النزعة (التآمرية) التي تعمل على استبدال قوة الشعب، وضرورة تنظيمه وتحريكه ضمن ممارسات تدريجية ومرحلية... بالثقة في قوة جماعة صغيرة قادرة على أن تنوب عن الشعب في تحقيق التغيير.

هذه على كل حال كانت خصائص بعض الاتجاهات السلفية التي اهتمت أكثر بالمنحى والاهداف السياسية (الأفغاني ــ الكواكبي مثلا).

7 ــ النخبوية أو النزعة «الثقافية» : والحركة السلفية عموما لم تستطع يوما أن تخرج (الا نادرا في الجزائر مثلا) من حدود العمل والتأثير ضمن النخبة المثقفة الى أفق العمل الشعبي الجماهيري ــ ما عدا إذا تغيرت هي نفسها ذاتيا وتحولت نحو العمل السياسي الوطني بدل السلفي الديني ــ وبذلك حكمت على نفسها بالعزلة جماهيريا، وبتبادل سوء الثقة وعدم التفاهم بينها وبين الشعب. ذلك الشعب الذي انطلقت هي أصلا من أجل تربيته وإصلاحه، وأن صح التعبير (إعادة أسلمته) (!؟)

ج ــ **ايجابيات :**

استطاعت (الحركة السلفية) بالفعل، ورغم الظواهر العديدة لقصورها العام... أن تحقق بعض النتائج الايجابية سواء على المستوى الفكري ــ الثقافي أو العملي ــ الاجتماعي خاصة. ومن ذلك :

1 ــ أنها حملت، ومنذ انطلاقها الأول في العصر الحديث، نية وإرادة التطور والتغيير، واستطاعت بالفعل أن تشيع نسبيا في مجتمعاتها رياح ومناخ نفس الرغبة ونفس الطموح، في ظروف كان الركود هو القانون السائد فيها تقريبا.

2 ــ وفي ظروف القهر الاستعماري، الذي كان يستهدف، في جملة ما يستهدف، محو الشخصيات القومية لمختلف الشعوب المستعمرة كان من أدوار واهداف الحركة الرد على هذه المخططات والدفاع عن المقومات الحضارية والثقافية الأصلية لشعوبها، سواء عن طريق الرجوع إلى الماضي وإلى المتخلف عنه من تراث... أو بالمحافظة على اللغة القومية (العربية الفصيحة). وقد نجحت في كل ذلك إلى حد بعيد، وتلك كانت أهم صيغ ونتائج مقاومتها للاستعمار.

3 ــ وبطرحها، من جديد، لمبدأ (العقل) كمقياس عند الشبهة أو الخلاف.. ولحق الاجتهاد الديني.. فتحت بابا كان قد أغلق من قديم اعتسافاً، وأتاحت فرصة النقاش من جديد سواء لتأويل العقيدة أو إصلاح الشريعة.

4 ــ أما انها، بوعي منها أو بغير وعي، كانت المقدمة الضرورية والجسر الذي مرت منه نحو عقول ووجدانات الشعوب الاسلامية، الكثير من أفكار وقيم العقلانية الغربية واللبيرالية البورجوازية...الخ فذلك مما يسجل لها ولو لم تقصد إليه عن رغبة وإرادة.

5 ــ وفي المقدمة من تلك الأفكار كانت الفكرة القومية بالمفهوم الحديث لها. فمن احشاء (الحركة السلفية) ولدت وبين أحضانها نشأت وتربّت. وفي الحق، فمنذ الكتابات الأولى لها نلاحظ دوما نوعاً من التساكن والتمازج الخفي بين الفكرة الدينية والفكر القومي.. وآثار ذلك الأرث من التمازج بين الفكرتين مازال ماثلا حتى اليوم في الفكر القومي العربي ويشكل على النقيض من الأمس، سلبية معرقلة.

6 ــ ساهمت مساهمة قوية في تنبيه الأذهان وتحريض وجدانات وشحذ عزائم شعوب يكاد طول الجمود أن يقتل كل استعداد لديها للعمل التحرري والكفاح الوطني. ومن هنا لاحظنا أن كثيراً من الحركات الوطنية في البلاد الاسلامية، قد صدرت سواء في توجهاتها أو أشخاص قادتها أو نوى تنظيماتها...عن حركات سلفية في الأصل.

7 ــ وعلى صعيد العمل الثقافي ونشر التعليم والاسهام في ميادين الآداب واللغة والبحوث العلمية في الانسانيات...الخ فإن الدور الجبار الذي قامت به الحركة على هذه الأصعدة شيء مثير للعجب والتقدير العظيم بالنظر لضخامته. وهو في الحقيقة يستحق وقفات علمية دراسية خاصة لم يحظ بها لحد الآن، حيث حجب الجانب الديني عن الناس الوجه العلمي للحركة السلفية والذي يزري في بعض نماذجه بمجهودات المحدثين أنفسهم رغم توفر

امكانيات لم تكن ميسرة يومئذ، ويمكن القول إن كل تيارات الثقافة والفكر والآداب... العربية اليوم لا يمكن فهمها ولا التأريخ لها دون مراعاة تلك المقدمات الضرورية والدروس الثمينة التي قدمها لها الرواد الأوائل للحركة السلفية. فهم قد حققوا النصوص وقدموا في ذلك مناهج، وهم أسسوا العمل الصحفي، ونشروا مبدأ التعليم العام وطوروا طرقه وهم في العمق اعادوا تأسيس اللغة العربية ثم ساهموا في تطويرها وعلى مستوى الأدب فقد طرحوا مضمونات وموضوعات بل وأشكالا أو أنوعا أدبية جديدة (كالمقالة مثلا)...الخ...الخ.

ومع كل ذلك، أو لأجل كل ذلك، فإن (الحركة السلفية) في نهاية المطاف وبالقياس إلى مطامحها وأهدافها هي نفسها. قد اعتبرت في التاريخ وفي مواجهة الأعداء والأخصام حركة مخفقة ومهزومة (المقصود المرحلة القديمة للحركة). وإن الجوهر العميق والمصدر الحقيقي، الذي يكمن وراء كل إخفاقاتها، يوجد في أصولها الطبقية كممثل ايديولوجي لبورجوازية حديثة متولدة عن العلاقات الرأسمالية الجديدة في تقاطعها مع العلاقات الاقطاعية (الأرستقراطية) الموروثة. فهي هجينة في تكوينها كسيحة منذ انطلاقها، ما دامت محكومة ومشروطة بظروف التبعية العامة للأجنبي من جهة أولى، وبأثقال وعراقيل مخلفات الماضي الوطني من جهة ثانية. إن العجز التاريخي لهذه الطبقة في أن تواجه الاستعمار أو تغير واقع التخلف والتحلل... هو بالذات وفي العمق الذي حكم بالعجز والقصور على ممثليها الفكريين (السلفية). هذا بالرغم من أن هؤلاء «الممثلين» قدموا هذه الرؤية الطبقية في حقيقتها (السلفية) على أنها رؤية للأمة جمعاء، وبالتالي على أن الاخفاق كان اخفاق الأمة لا اخفاق الطبقة التي مثلتها الحركة.

لقد انصبت تلك الرؤية الايديولوجية للحركة على الماضي مستمدة منه كل قيمها، بدل المستقبل الذي لم يكن موجودا يومه خارج الاستفادة من منجزات (الغرب) بالذات. وهي حتى في علاقتها بالماضي كانت «أجبن» من بعض ظواهره الفكرية المتقدمة والبارزة. فلم تتجاسر على نقاش العقيدة لاعادة تأصيل جديد لها يستفيد من منجزات البشرية التقدمية بواسطة «العقل» و «العلم»... كما صنعت وتجاسرت، في ظروفها الخاصة، الحركة الاعتزالية وبذلك كانت قاصرة حتى عن ذلك «الماضي» نفسه الذي تغنت به كثيراً وأحرى عن الحاضر والمستقبل.

وأخيرا، فقد مثلت (الحركة السلفية) بحق مظهرا من أبرز مظاهر **المأساة** في تاريخ الفكر العربي (والاسلامي عموما) بل وفي تاريخ العرب الحديث. حين كانت نتيجة «نواياها وممارستها هي كما عبر الاستاذ حوراني «...إن السلفية مثلت في حقيقتها جسراً من أهم الجسور التي مر عليها الفكر الغربي نحو الثقافة الشرقية ذلك الفكر الذي قامت أساسا من أجل محاربته» ولعمري إنه لحكم قاس وتهكمي من التاريخ، غير أنه حكم مطابق لما يجب أن يكون.